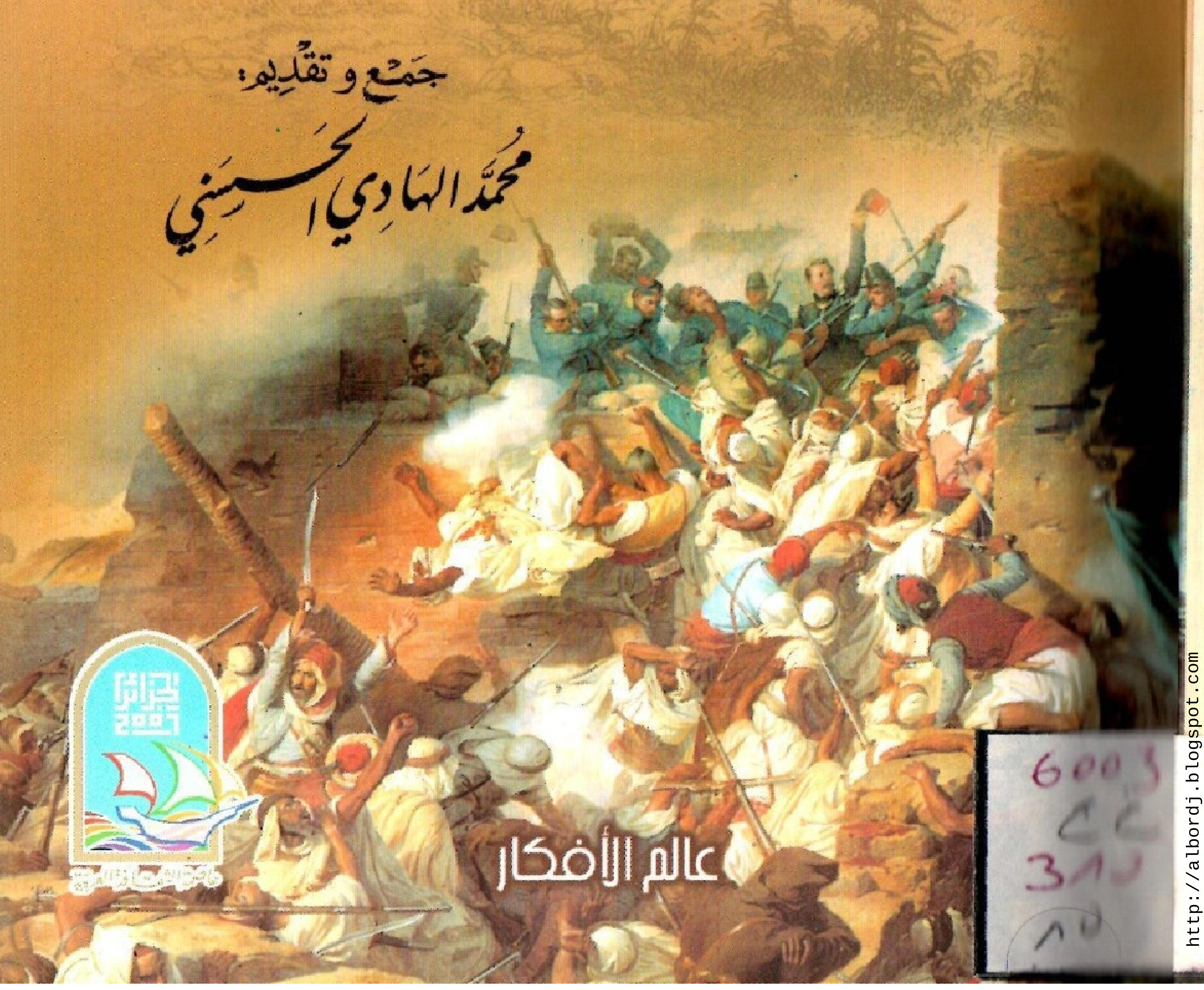
الاحتلال الفرنسي للجزائر

من خلال نصوص معاصرة



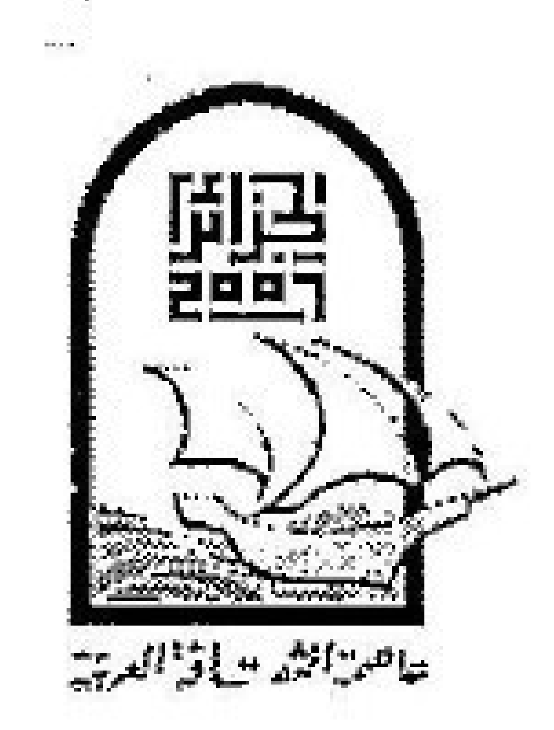
جمع وتقديم:
محمد الهادي الحسني

عالم الأفكار

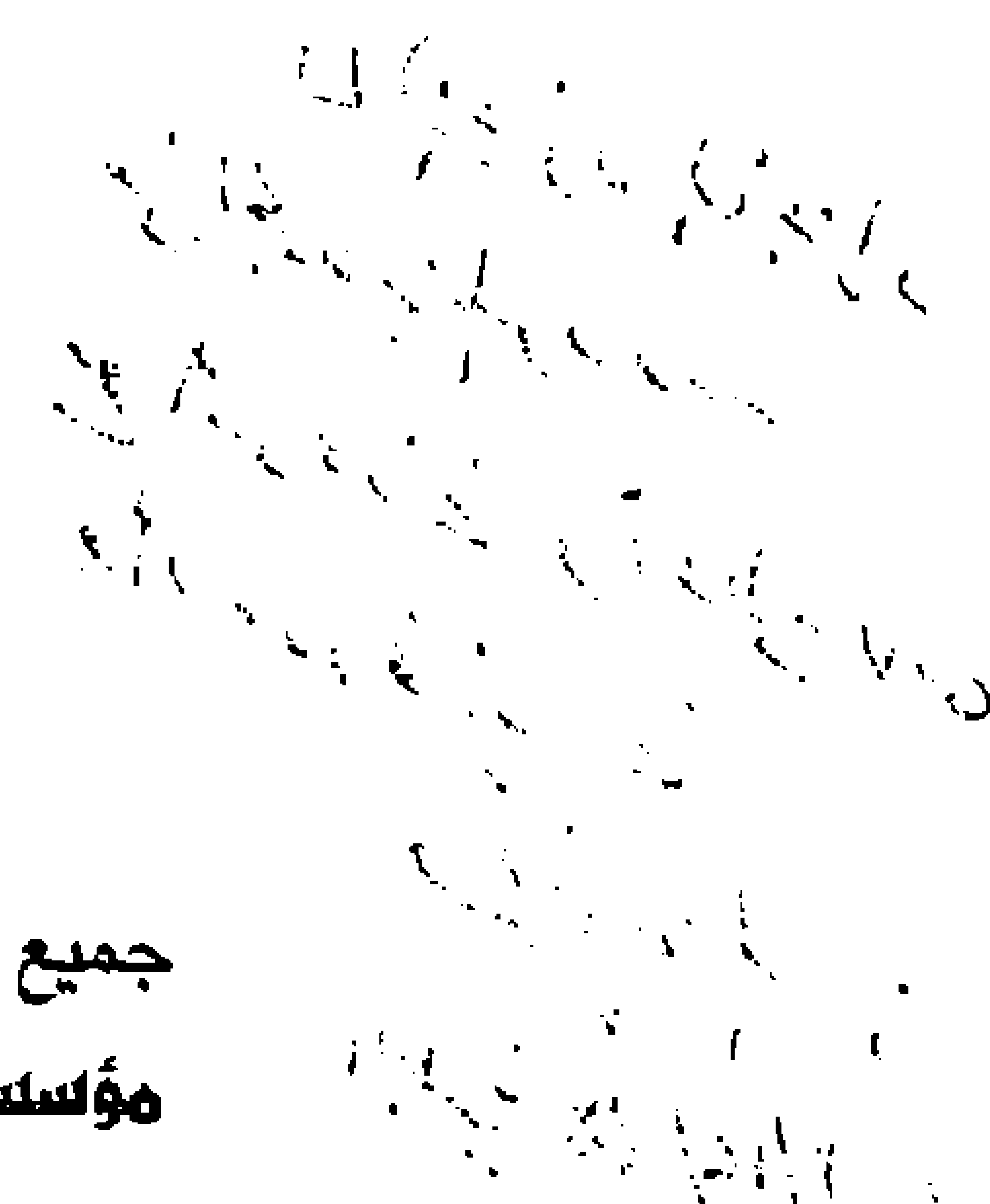
احتلال الجزائر

من خلال نصوص معاصرة

جمع وتقديم محمد الهادي الحسني



عالم الأفكار

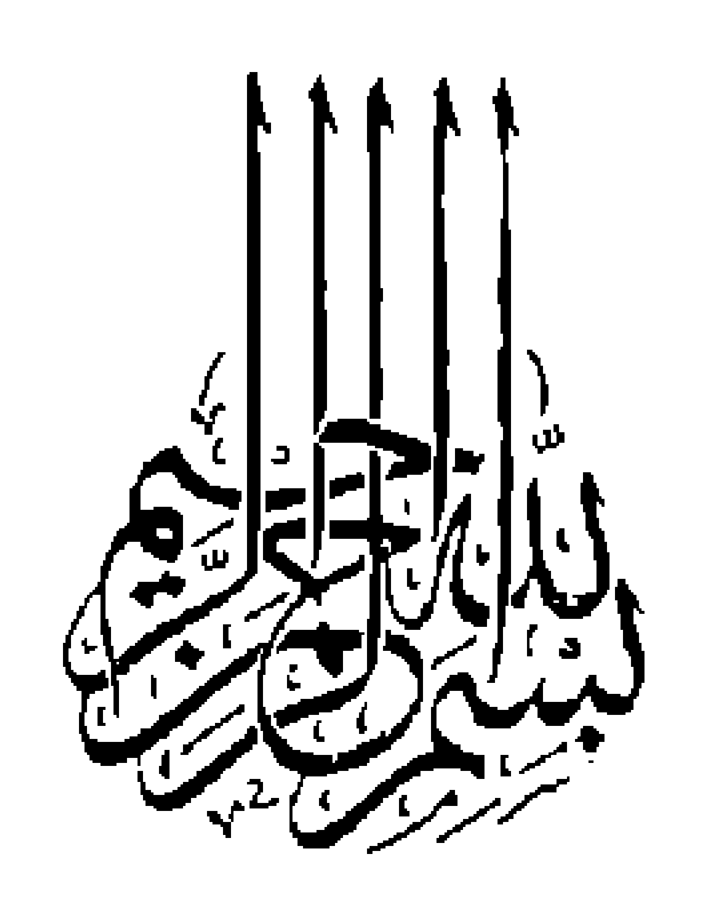


مؤسسة عالم الأفكار

رقم 89 حي باحة (الليدو) – المحمدية الجزائر

رقم الإيداع القانوني: 359 / 2006

ردمك: 252–712–9961–978



مقدمة

محمد الهادي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، النبي الأمين، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الطيبين، وعلى من اتبعه إلى يوم الدين،

تشكل النصوص بمختلف أنواعها (تقارير، مذكرات، شهادات، إبداع) مصدرا هاما من مصادر كتابة تاريخ أي شعب في هذه الفترة أو تلك من تاريخه. وكلما كثرت هذه النصوص وتنوعت -أشكالا وأشخاصا- كان ذلك أدعى إلى معرفة الفترة المتناولة بالدراسة أقرب إلى الحقيقة، حيث تُعرف الجزئيات، ويُدْرَكُ تطوُّر الحوادث وجَرَيَانُها على هذه الكيفية أو تلك.

إن سرد حوادث الاحتلال الفرنسي للجزائر ما يزال معتمدا بنسبة كبيرة على الرواية الفرنسية، سواء كانت تلك الرواية عبارة عن تقارير رسمية، أو مذكرات شخصية، أو

رسائل خاصة كتبها فرنسيون، وهي رواية أقل ما توصف به أنها رواية غير حيادية، إن لم نقل إنها متجنية على بعض الأمور، محرفة لها.

من أجل ذلك فإن الكتابة التاريخية الحقيقية عن تلك الحوادث لن تتم بشكل أقرب ما يكون إلى الصحة إلا بعد اكتشاف أكبر قدر ممكن من النصوص والوثائق المعاصرة لها، سواء كانت هذه النصوص والوثائق لجزائريين أو لغيرهم –من غير الفرنسيين– ممن كانوا شهودا على تلك الفترة، حتى يمكن المقارنة السليمة بينها وبين ما هو موجود من نصوص فرنسية.

إن الأمر الذي يؤسف له هو أن الرواية الجزائرية عن تلك الحوادث تكاد تكون منعدمة، ولسنا نشك في أن هناك كتابات جزائرية عن تلك الفترة، ولكن الموجود منها قليل جدا بحيث لا يسمح بالإجابة الشافية عن كثير من الأسئلة المطروحة عن تلك الفترة وما جرى فيها.

لا يُستبعد أن تكون تلك الكتابات، أو أكثرها، قد وقع بأيدي الفرنسيين فأتلفوه، أو ما يزال مُحتفظا به عند عائلات، أو في دور الأرشيف في فرنسا، ومن الأدلة على هذا أن الشريف الزهار –نقيب الأشراف في الجزائر– كتب كتابا

في جزأين، خصص الجزء الأول منهما للثلاثين سنة الأخيرة من العهد العثماني في الجزائر، وخصص الجزء الثاني لبدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر، وإذا كان الجزء الأول قد أُنقذ ونُشِر بعناية الأستاذ أحمد توفيق المدني –رحمه الله– فإن الجزء الثاني مفقود إلى اليوم.

وحتى بعض النصوص الجزائرية التي نشرت في العهد الفرنسي كمذكرات أحمد باي لا يُستبعد أن يكون قد لحقه تحريف، أو كُتِب أصلا تحت ضغوط وتوجيهات فرنسية لخدمة أغراض معينة، وتحقيق أهداف محددة.

إن على المسئولين الجزائريين واجبا أكيدا هو الحرص على استعادة أرشيفنا الموجود في فرنسا، والضغط –بشتى الوسائل– على فرنسا لإعادة هذا الأرشيف. ولو صحَّ العزم من مسئولينا لأمكنهم ذلك.

ومما يجب على المسئولين الجزائريين عمله –أيضا– تكليف العاملين في سفاراتنا بالبحث في دور المحفوظات والوثائق في الدول التي يعملون فيها عن كل ما له صلة بتاريخنا من تقارير ومعاهدات.

* * *

يضم هذا الكتاب مجموعة من النصوص، لكل نص سمة خاصة من حيث كاتبه، ولغة كتابته، والحالة النفسية التي كتب فيها.

فالنص الأول هو تقرير رسمي كتبه القنصل الأمريكي في الجزائر في أثناء الاحتلال، وقد كتبه بعد عدة أيام من احتلال مدينة الجزائر، وقد أرسله إلى سلطات بلاده، يعلمها فيه بما جرى، وبالرغم من أن القنصل لا يخفي مشاعره وتعاطفه مع الفرنسيين، فقد لاحظ «أن القوات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من الفظائع التي قد تلائم المتوحشين، ولكن البرابرة –كما يقول– الذين قاوموا الفرنسيين لم يصدر منهم أبدا مثل ما صدر من هؤلاء»، كما شهد «أن ميولهم –الفرنسيين– للنهب والسلب تفوق بكثير ميول "البرابرة"». وقد تعمدنا إضافة التقرير في لغته الأصلية –الأنجليزية– ليسهل على القارئ العارف لهذه اللغة المقارنة بين النص الأصلي وبين النص المترجم.

والنص الثاني هو لشخص يسمى أحمد أفندي، الذي يبدو أنه كان موظفا تابعا لمفتي الجزائر، وقد هاجر بعد سقوط الجزائر إلى الأناضول، حيث أمضى بقية حياته

إلى توفي سنة 1861، ولا يوجد ما يشير إلى سبب كتابته هذا النص.

والنص الثالث هو لأحد الألمان يسمى «سيمون بْفايفَرْ»، كان -عند احتلال الجزائر- أسيرا. ولا يكتم هو الآخر مشاعره وتحيزه للفرنسيين، وغبطته باحتلالهم مدينة الجزائر.

والنص الرابع عبارة عن قصيدة باللهجة العامية لشخص يسمى «الشيخ عبد القادر» الذي لا نملك عنه معلومات، وقد عثر على هذه القصيدة المستشرق الفرنسي «جوزيف دي بارمي»، ونشرها في المجلة الإفريقية (مجلد 71 - لسنة 1930)، وفيها وصفٌ لما جرى عند الاحتلال، وتصوير لبعض ما أصاب الجزائريين، وتحسر على ما سلف من أيام الجزائر المجيدة، وقد ترجم دي بارمي هذه القصيدة إلى اللغة الفرنسية، وعلّق عليها عدة تعليقات.

والنص الخامس والأخير هو عبارة عن قصيدة باللغة الفصحى، وهي لِعلَمٍ من أعلام الجزائر آنذاك وهو الشيخ محمد بن الشاهد، الذي تولى منصب الإفتاء في الجزائر، وقد نشر هذه القصيدة وعرّف بصاحبها الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه «تجارب في الأدب والرحلة».

نرجو أن تضيف هذه النصوص إلى القارئ معلومات جديدة، وفوائد أخرى لم يكن قد اطلع عليها من قبل، وأن تكون هذه النصوص عبرة لنا نعتبر بها، حتى نتلافى ما أدَّى إلى وقوع الاحتلال الفرنسي لبلادنا، الذي لم يأت من فراغ، بل هو نتيجة حتمية لما كانت تعيشه بلادنا من تخلف واختلاف أوهن القوة، وأذهب الريح، وجلب الأعداء.

البليدة: 2007/08/03

الغزو الفرنسي للجزائر في وثيقة أمريكية معاصرة(*)

(*) عثر على هذه الوثيقة الدكتور منصور أحمد بوخمسين، وعرّبها ونشرها في مجلة «حوليات كلية الآداب» لجامعة الكويت. في سنة 1987–1988، وهي لقنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر في أثناء الغزو الفرنسي، وهو هـ. لي. وقد قدّم لها بمقدمة، وصف فيها الوثيقة، وتحدّث عن كاتبها، وأسلوبها، ومحتواها، ثم قام بتحليلها، كما علّق على بعض نقاطها، وعرّف ببعض الأعلام والأماكن.

الجزائر في 15 يوليو 1830

سيدي،

منذ بضعة أيام ، انتهزت فرصة (سفر) غير متوقعة عن طريق جبل طارق، لأعلمك بأن إشاعة محتملة الصحة في محتواها وظروفها قد وصلت إلى هنا من ماهون ، مفادها أنه سيتم استبدالي عن قريب بالمواطن المحترم الكوماندر بورتر. إنني لا أملك أمام هذه العدالة الصارمة إلا أن أنحني بخضوع وتواضع، يحدوني الأمل بأن سلوكي هنا لم يستحق هذه الدرجة من السخط ، واعتقادي، مهما كنت قليل الأهمية في نظر سلطات بلادي وغير مستحق لتقديرها، بأن ليس هنالك من يفوقني في حبي البار لبلادي وتقديسي لتربتها، لأخلاقها، لحريتها ولقوانينها. إني أقدم هذا الحب الجياش المتقد كضمانة على أنني ، عندما تدعوني الظروف التي يرزح تحتها هذا البلد للعمل، سوف أبذل في خدمة وطني، في وضعي الحالي بعد تنحيتي من منصبي، الجهد الصادق نفسه الذي كنت أبذله قبل معرفتي بخبر تلك التنحية . ولكن يبدو أن خلع الداي وترحيله (إلى) بلد بعيد

سوف يعطل، إن لم (يلغ) تماما، الواجبات السياسية التي كان منصبي مسؤولا عنها.

في يوم 5 الماضي كان لي الشرف إبلاغكم بخبر سقوط هذه المدينة واحتلالها من قبل الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بورمونت، وذلك بعد سلسلة من العمليات المتنوعة والناجحة والتي كانت قد بدأت بنزول ذلك الجيش في منطقة «سيدي فرج » في يوم 14 يونية، وانتهت لتوها، ولو كان من ضمن واجباتي أن أصف تلك الحملة بسمة معينة لأشرت إلى أن القائد الفرنسي، على الرغم من أنه لم يضرب مثالا لذلك المزيج من الإقدام والسرعة والابتكار الذي اعتاد على رؤيته الدارسون والممارسون لأساليب الحرب الفرنسية في الفترة الأخيرة ، إلا أن قراراته، كانت على قدر كبير من الجرأة والنشاط المشوب بالحذر الذي لا يترك شيئا لتقلبات الحظ . فكما أنه في كل مرة شن فيها الهجوم دفع بأعدائه إلى الخلف ، فإنه في كل مرة توقف زحفه قام بتحصين مواقعه، كما أنه لم يقم أبدا بإطالة خط عملياته من دون أن يوفر لقاعدته المزيد من الأمان .

يمتدُّ الطريق من سيدي فرج إلى مدينة الجزائر مسافة تبلغ حوالي 12ميلا، يسير خلالها بحذاء قاعدة النتوء الجبلي المنتهي عند رأس كسكين، الذي يقع إلى الغرب من المدينة بخمسة أميال، وإلى المشرق من سيدي فرج بتسعة أميال. ورغم كون هذا الطريق كثير التلال في معظم أجزائه وتغطيه الشجيرات الشوكية، وتتناثر فوقه مجاميع من أشجار الصبار والصمغ، إلا أنه لا تعوقه الغابات أو الأنهار أو الجبال مما يسمح للخيالة والمدفعية بالسير عليه بدون صعوبة كبيرة، كما أنه من الممكن الإشراف عليه كله من مكان عال . ولكن على الرغم من أن الجنرال بورمونت لم يواجه إلا مقاومة غير نظامية ولا ثابتة من العرب والبربر إلا أنه استغرق خمسة عشر يوما للوصول إلى مرمى مدفع من القلعة التي تُكَوِّنُ نقطة الدفاع الرئيسي عن مدينة الجزائر من جهة البر. وطوال تلك الفترة لم يجابهه أبدا عدد يفوق عَدَدَ جنوده، بل كان عدد من يواجههم غالبا أدنى من عدده. يقال إن عدد جنوده البرية يبلغ 45 ألف رجل إلى جانب مساندة الأسطول الذي يحمل 15 ألف بحار. و(لا) أعتقد أن عدد القوَات الفوضوية التي واجهته قد وصل في أي وقت من الأوقات

إلى 50 ألف رجل . في يوم 19 (يونيه 1830) تقدم من (سيدي) فرج في الصباح الباكر، وباغت معسكر (الآغا) في أسطى والي، على مسافة حوالي ثلاثة أميال على طريق الجزائر، وقامت قواته بالقضاء على الكثير من الأتراك بالسلاح (الأبيض) وأجبرت الآخرين على الفرار، كما غنمت كميات من الحاجيات الثمينة والمهمات العسكرية. وفي يوم 24 (يونيه 1830) قام العدو بتجميع قواته أمام جبهته وعلى جناحيه، فتقدم (بورمونت) إلى الأمام مرة أخرى في حوالي الساعة الثامنة في تشكيل من ثمانية طوابير دافعا إلى الخلف بقوات الآغا الضارية ولكن غير المنتظمة، ثم قام بالاستيلاء على المعسكر الثاني لذلك القائد (الجزائري)، واحتلال سلسلة المرتفعات التي أمامه على مسافة أربعة أميال من البلد.

وفي تلك المرة كما في المرات السابقة التي هجم فيها الجيش الفرنسي، فر العرب والبربر من أمامه، تاركين مدينة الجزائر وراءهم، واتجهوا إلى الشرق منها على امتداد الساحل. بعد ذلك الهجوم احتفظ (بورمونت) بهذا الموقع الجديد، وقام بتحصينه وتقوية خطوط اتصالاته مع الأسطول، كما قام أيضا

بجلب الذخائر وقطع المدفعية، واستمر على ذلك العمل حتى صباح يوم 29 (يونيه 1830)، مكتفيا بصد مناوشات (الجزائريين) والرد على قصف الآغا المدفعي.

ولقد كانت المناوشات والقصف في غاية الشدة والدموية. وفي فجر ذلك اليوم، وبعد أن جرح أكبر أولاده الأربعة الذين كانوا يرافقونه جرحا قاتلا، قام بشن هجوم نجح بعده بهزيمة أعدائه هزيمة ساحقة، وللمرة الثالثة قام هؤلاء الأعداء بالفرار بعيدا عن المدينة تاركين الدفاع عنها لتحصيناتها فقط. وعلى الرغم من أني لم أستطع مقاومة التعاطف مع الجانب المتعرض للغزو في هذه الحرب، ولم أقدر إلا أن أشفق على المقاومة الباسلة ولكن غير الفعالة التي قاوم بها هؤلاء بشجاعة وبراعة جنرالات الجيش الفرنسي وقائده، إلا أنني لا أذكر أبدا أنني شعرت في حياتي بمثل ذلك الفخر والزهو بالانتصار الذي غامرني عندما وقع بصري للمرة الأولى من شرفة موقعنا، على الفرق المسيحية المنتصرة وهي تدفع أمامها حشود البرابرة، وتُتَوِّجُ بوجودها المرتفعات المطلة على الجزائر- بينما راياتها المألوفة تخفق بكبرياء أمام الريح وأسلحتهم المنتصرة تلمع تحت شمس الصباح-.

كماكنت قد تشرفت بإخباركم في رسالتي[2] المؤرختين في 12 أبريل و9 مايو، أن قناصل إسبانيا ونابلي والدنمارك والسويد مع من تبقى من عائلاتهم في هذا البلد خلال هذه الحرب، وكافة المسيحيين مع عدد من اليهود التابعين لهم، قد قاموا بالتجمع في منزل كبير ومحصن، كما نظموا أنفسهم على شكل حامية تحتمي بالعلم الأمريكي، وصوتوا بالإجماع على وضع أنفسهم تحت إمرتي. ومنذ اللحظة التي قام بها خطر الغزو المنتظر باجتلاب جماعات العرب والبربر من السهول والجبال القريبة من الجزائر، تلك الجماعات التي أسرف الداي والانكشارية بالاعتماد على عددها المبالغ فيه وشجاعتها المتعصبة، تعرضت بيوت القناصل الأربعة المذكورين إلى تعديات وحوادث نهب، استحال معها السكن فيها. كما أن منزلي رغم موقعه الذي جعله أقل تعرضا للتعدي، لم يسلم بأي حال من الأحوال. لذا اضطررنا في يوم 26 مايو لأن نترك منازلنا العديدة، وأن نتجه إلى القلعة التي كان الداي قد وافق على اختيارنا لها وتحضيرنا لها لكي تحمينا وتابعينا في منطقة محايدة تؤوينا حتى تمر عاصفة الحرب، ويهدأ النزاع من حولنا. وتجد طي هذه الرسالة

مجموعة أوراق تحوي نسخا من دستورنا، وأول أمر أصدرته لتنظيم الحامية، ستشرح لك طبيعة رابطتنا، وتجعلكم تقدرون الخطر الداهم الذى تشكلت حاميتنا في ظله. ولكن يسرني أن أقول إن نتيجة عملنا هذا كانت حسنة للغاية. إذ بينما نهبت بقسوة كافة البيوت التي حولنا العائدة للعرب واليهود، وأزهقت الكثير من أرواح هؤلاء حافظنا نحن على سلامتنا التامة، ومع استثناءات بسيطة كنا دائما فى اطمئنان تام. ففى كل مرة دفع فيها تقدم الفرنسيين بالقوات التركية إلى جوار مكاننا، كنا نخشى أن تتحول مجموعتنا المسيحية الصغيرة إلى هدف مغري لانتقامهم وعدوانهم، وفي كل مرة تعود تلك القوات لمواجهة الفرنسيين، بدا من المحتمل أن تدفعهم ثقتهم بأنفسهم وجشعهم إلى محاولة الهجوم علينا، ولكن دفاعاتنا الجديرة بالاحترام وموقعنا الملائم، لم يقم فقط بحمايتنا من عنفهم، بل لقد سرنا أن نعلم بأننا قد تسببنا في حماية الكثير من الأسر التى كانت في جوارنا حتى قيام الفرنسيين باحتلال المنطقة. لقد حدث ذلك كما ذكرت سابقا يوم 29 (يونيه 1830) وذلك عندما قام القائد الفرنسي بإرسال ثُلّة تحمل تأكيدات الاحترام

والمساعدة، ولكن تقترح احتلال موقعنا لاحتياجهم له كنقطة مساندة لجناحه الأيسر. ورغم قبولي بامتنان لعروضه بالمساعدة والحماية، إلا أنني شعرت أن من واجبي أن أرفض التنازل عن مكاننا له، وأن أحافظ على الموقف الحيادي الذي تلتزم به الولايات المتحدة والدول والقناصل الذين كانوا تحت علمي تجاه فرنسا والجزائر، والموقف الودي تجاه الجزائر الذي تضفيه علينا أوراق الاعتماد الخاصة بكل منا، ولقد ذهبت إلى حد أن أطلب بألا يقوم باحتلال حتى المنطقة المحيطة بنا بقواته، وخصوصا ألا يضع في تلك المنطقة بطارية مدفعية، كما كان قد لمح لذلك أحد ضباطه، حيث أن مثل ذلك العمل لا بد أن يتسبب في إطلاق النار علينا من مدفعية الداي الموجودة في الحصون، وبذلك يضع عائلاتنا التي تضم السيدات والأطفال في خطر عظيم. ولقد دعمت طلبي بالإشارة إلى أن موقفنا المحايد قد حافظ عليه البرابرة بكل دقة، وبأني أرجو ألا تدعونا إجراءات الجنرال الفرنسي لأن نأسف على اقتراب جيش مسيحي منا. ويمكن القول إن ندائي ذلك أو فحص القائد الفرنسي الدقيق للموقع، قد حدا به لأن يصرف النظر عن

إقامة بطارية المدفعية بالقرب منا، ولكن بدا من الضرورات العسكرية أن يقوم باحتلال المرتفع الذي تقع عليه حاميتنا. ولقد قام بذلك العمل الجنرال أشارد مع الفرقة التي يقودها، وعلى الرغم من أنني قد أبديت احتجاجي الشديد على ذلك العمل، إلا أنني لا أشك بأن تلك العملية قد أملتها أحكام الضرورة الحربية، وأشهد أنها قد تمت باعتدال وحذر. فلقد خصص الجنرال حامية من 40 رجلا لتتولى حمايتنا، وعندما سمع بأن والدي ووالد البارون الملازم ليمان كانا يعرفان بعضهما بعضا، خلال حرب الاستقلال الأمريكية، أمر ذلك الضابط بأن يتولى تلك الحامية. وعندما تمت تلك الاستعدادات وشرع الكثير من الضباط الفرنسيين من مختلف الرتب يترددون (على مكاننا) لكي يلاحظوا المكان ويمتعوا أنظارهم برؤية الأسطول والجيش والقلاع والمدينة من شرفتنا (المطلة على كل ذلك) جر علينا ذلك ما كنا نخشاه، ألا وهو انصباب قذائف القلاع التركية علينا، ولقد كادت واحدة من أولى تلك القذائف أن تقتل الجنرال أشارد نفسه. ولما لم يكن باستطاعتنا إزالة تلك القوة الفرنسية، أو رفض القيام بواجبات الضيافة تجاه ضباطها، بقيت مائدتنا

وشرفتنا في ازدحام دائم، فالأولى كانت المائدة المسيحية الوحيدة داخل خطوطهم، والتالية كانت أكثر المناطق إشرافا في المنطقة المحيطة بالجزائر. ولذا كانت النتيجة زيادة عظيمة في مصاريف مؤسستنا، وتوجه العديد من القذائف وطلقات الرصاص ضدنا. أما المصاريف فنحن على ثقة من أن حكومتنا ستعوضنا عنها، وأما القذائف فلقد أنقذنا منها موقع القلعة الفريد بالنسبة للأرض المحيطة بها والمدافع المهاجمة، والذي جعل من المستحيل على أي قذيفة أن ترتفع الارتفاع الكافي لتصيب الموقع من دون أن تعبر من فوقه. ولكن على أية حال وَضَعَنَا تَعَرُّضُنَا (للقصف) في موقف غير سار، وكانت السيدات في موقف مؤلم من يوم 29 يونيه وحتى 5 يوليو. إن من المؤسف أن ألاحظ هنا أن القوات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من الفظائع التي قد تلائم المتوحشين، ولكن البرابرة الذين قاوموا الفرنسيين لم يصدر منهم أبدا مثل ما صدر من هؤلاء.

ففي صباح 29 (يونيه) وبينما كان الضباط الفرنسيون يتناولون المرطبات التي أعددناها لهم، قامت مجموعة من جنود هؤلاء الضباط باقتحام منزل قنصل نابولي والذي

كان يرفرف عليه علم تلك الدولة، وقتلوا البستاني الذي يعمل عند القنصل وكان أوربيا، وكاتب القنصل وكان يهوديا، وابنة ذلك الكاتب، ولقد حاول الجنود الفرنسيون تبرير ذلك الهجوم الوحشي بالادعاء كذبا بأن البستاني واليهودي قاما بإشهار المسدسات عليهم، ولا يستطيع ضحايا هذه القسوة الآن تكذيب ادعاء هؤلاء الجنود. ولقد كان من الأرجح تبرير مثل هذه الأعمال بدعوى أن هذه الجرائم ارتكبت في فورة من فورات الدم وهيجان الفتح، بعيد قيام الفرنسيين بإزاحة العرب من آخر موقع لهم على أرض المعركة. ولقد كان من الممكن أن أصدق ذلك التبرير، لولا أن هؤلاء الجنود قاموا فيما بعد، وعن عمد مبيت، باقتحام منزلي السفيرين السويدي والدنماركي والسطو عليهما، حيث دمروا الكثير من المقتنيات الثمينة، وفي النهاية قاموا بالسطو على منزلي أنا أيضا حيث لم يجدوا الكثير لكي ينهبوه. ومما استطعت أن أعرفه عنهم أقول إن ميولهم للنهب والسلب تفوق بكثير ميول البرابرة، ولم يحاول أحد الحد من تلك الميول ولا بحالة واحدة من المعاقبة. لقد تم ارتكاب تلك الجرائم في الفترة ما بين 29 (يونيه)، و5يوليو، وهي فترة

استغلها قائد هؤلاء الجنود في فتح الخنادق وتركيب بطاريات المدفعية قبالة حصن مولاي الحسن، وهي قلعة مغرقة في القدم، وبالغة القوة ، تشرف من علٍ على المدينة، وتكون دفاعها الرئيسي من جهة البر. ومن هذه القلعة ومن قلاع أخرى صغيرة ومن أسوار القصر، قام الأتراك بقصف متواصل بالقذائف والقنابل على الرجال الذين في الخنادق، وعلى أي مجموعة من الفرنسيين تظهر للعيان في مدى نيرانهم، ولقد تعرضت حاميتنا التي كانت مَحَلّاً احترامهمْ في البداية لضربات متواصلة من نيرانهم كما أشرت إلى ذلك فيما مضى. ولقد وُجدنا أنفسنا غير قادرين على البقاء في مكاننا أو مبارحته بسلام، إذ طالما كان الفرنسيون يحيطون بنا، فإن بطاريات الترك ستواصل ضربنا، أما لو أننا انسحبنا من منطقة جوار وحماية الفرنسيين، الذي اعتبرنا الجزائريون حُلَفَاءَهُم فإن من المؤكد ان غضب العرب سينصَبُّ علينا، وإن صرنا في بيت غير محصن فلن نستطيع دفعهم عنا، لذا قررنا البقاء بنسائنا وأطفالنا. ولحسن الحظ استطاعت مجموعتنا التي يقارب عددها المائتي شخص النجاة دون أن نخسر فردا واحدا خلال تلك الفترة، وبسبب

فقدان الاتصال بين خدمات البحرية واحتياجات الجيش بقي الضباط والجنود الموجودون حولنا بدون تموين، لذا قام هؤلاء باستهلاك جانب كبير من مخزوننا الغذائي.

وأذكر في إحدى المرات أننا اضطررنا أن نعطي الجنود 11 رأسا من الغنم، ولقد قمنا بذلك، كما قمنا بضيافة الضباط عن طيب خاطر وبسرور شعرت به بقوة، خاصة لأنني وجدت ضمن هؤلاء الضباط الكثير من الأسماء البارزة في ثورتنا (مثل) دوق موبيه دي لوزيم، الكونت جرانمونت، البارون سانت سيمانز وكاتسيرز الشاب، الذين يبدو أنهم ورثوا صداقة آبائهم للولايات المتحدة. إن من الممكن عَزْوَ طول المدة التي انقضت بين بداية العمل في التحصينات الفرنسية والانتهاء منها إلى فقدان فعالية الارتباط والتنسيق بين البحرية والجيش – إذ لم يتم إحضار المدافع اللازمة لإنشاء تلك التحصينات من سيدي فرج، على بعد عشرة أميال، إلى الموقع (المطلوب) إلا مساء يوم 3 (يوليو 1830)– ولقد تم تأمين التحصينات الفرنسية ضد المناوشة بسلسلة من المتاريس. لقد كانت معاونة البحرية في القتال في غاية الضعف والسخافة. ففي أوّل يوم من أيام يوليه،

قام تشكيل بحري مكون من طابورين من سفن القتال و 15 فرقاطة وعدد من السفن الصغيرة يقودها اللواء البحري دوبيير والعميد البحري رازاميل بالإبحار بالقرب من الشاطئ في نسيم خفيف من رأس كسكين إلى مدينة الجزائر بمواجهة سلسلة القلاع الصغيرة التي تحمي ذلك الساحل، وقام ذلك التشكيل خلال إبحاره بفتح النار على تلك القلاع بالتوالي. ولقد كان في اعتقادنا أن ذلك القصف البحري لم يكن القصد منه إزعاج البطاريات التركية وتحويل نيرانها بعيدا عن الجيش الفرنسي الذي كانت تزعجه وحسب، بل لتدمير تلك البطاريات وكل الحصون التي كانت تحت رحمة نيران ذلك الأسطول. ولقد أعطانا موقعنا الذي يرتفع 12000 قدم (كذا) عن ذلك الجزء من الشاطئ مكانا نشرف منه عن قرب، نحن والضباط الفرنسيون على ميدان العمليات كله.

وعلى الرغم من أن السفن مرت في تتابع، يشاهد كل منها أثر ضربات السفينة التي قبلها، ورغم أن كل واحدة من تلك السفن، قامت بإطلاق متزامن لمجموع مدافعها الجانبية أكثر من مرة، فإن أيا من تلك الطلقات بالكاد أفلح في الوصول إلى الشاطئ أو إلى اثنتين أو ثلاث من القلاع التي لم يصبها أي

أذى، بل إن ذلك القصف بدلا من أن يسكت حتى ولو أصغر واحدة من تلك القلاع، لم يمنع إثنتين منها، عندما انتبه رجالهما إلى العدد الغفير من الضباط الذين تجمعوا في منزلنا من تجديد إطلاق النار على ذلك المنزل وسط القصف الفرنسي البحري. ولقد قام بعض هؤلاء الضباط من ذوي الرتب العالية بالسخرية من ذلك العرض، وانقبض صدر بعض آخر، بينما حاول آخرون تبرير عدم فعالية الأسطول بالادعاء بأن الهدف من تلك العملية لم يكن سوى محاولة سبر عمق الماء في تلك المنطقة، وقياس أبعاد القلاع استعدادا لهجوم قوي وفعال يأتي فيما بعد. ولما استمر الجيش في المعاناة الشديدة من القصف المدفعي التركي المتصل على فرق العمل والحراس، قام الأسطول في يوم 3 يوليو بالاقتراب مرة أخرى من النقطة نفسها، بالترتيب نفسه ولكن بقوة أكبر، وكان لنا نفس ميزة مراقبة تلك العملية، كما كنا قد راقبنا سابقتها، وكان معنا هذه المرة عدد أكبر من الضباط الفرنسيين. وكانت القوة البحرية هذه المرة مكونة من سبعة طوابير من سفن القتال، و 15 فرقاطة، وست سفن قنابل، وبعض السفن الصغيرة ومركبين بخاريين، قام

أحدهما أحيانا بإطلاق النار. كان على رأس القوة فرقاطة قامت بتأدية واجبها بشجاعة ودقة. قامت هذه الفرقاطة بالمرور أمام كل البطاريات من رأس كسكين، حتى أكثر حصون المدينة مناعة، مبقية المسافة بينها وبين الشاطئ في حدود الإطلاق المباشر ومستمرة في القصف من المدافع الجانبية في تتابع سريع مستمر، يتبع تلك الفرقاطة سفينة قتال تحمل علم الأميرال، ولكنها بقيت على مسافة كبيرة (من الشاطئ) وكانت قليلة الفاعلية، وكانت كل سفينة أخرى أكثر ابتعادا عن الشاطئ من سابقتها وأقل اقترابا من بطاريات المدينة القوية، لذا بدلا من أن يتوجه ثقل تلك النار الكثيفة إلى المدينة وبطارياتها القوية المدافعة عن الميناء، تمّ صرف تلك النيران على القلاع قليلة الأهمية التي كانت تحمي مدخل المدينة من الغرب، وحتى هذه لم ينجح القصف في إسكات أي منها. إنني لم أشاهد مثل هذا القصف المدفعي من قبل، ولم أكن أتصور أن مثل هذه النار الكثيفة قد تكون غير مؤذية على الإطلاق، فنحن لم نشاهدها تقتل فردا واحدا، وحتى اليوم لم أسمع أحدا يقول إنها قد قامت بذلك. إننا لو حسبنا أن كل نوبة إطلاق من ذلك الأسطول قد قذفت

سبعمائة إطلاقة، وإذا كان معدل إطلاق كل مدفع في السفينة خلال تلك العملية كان ثلاث مرات، إذا يمكننا القول إن 2100 طلقة قد تم إطلاقها من قبل تلك القوة البحرية دون أن تنتج أي أثر يذكر.

وبالمثل لم يتعرض الأسطول لأي سوء، ما عدا انفجار أحد المدافع على سطح سفينة الأميرال –والتي بما أن أي مذبحة لم تحدث بسبب المسافة البعيدة عن الشاطئ التي بقيت عليها تلك السفن تسبب (ذلك الحادث) في إحداث هيجان عظيم فوق ظهر المركب. لقد تسبب هذا العرض السيئ بإصابة ضباط الجيش الذين لم يخفوا خيبة أملهم وحزنهم بالإحباط الشديد– لقد كان ذلك الفشل دليلا قويا ضمن أدلة كثيرة، نجدها في تاريخ فرنسا، على عدم قدرة هذه الأمة الحربية على القيام بأي إنجاز عظيم في البحر. في اليوم التالي وهو الذي صادف عيد استقلال بلادنا بدأ الفرنسيون بعمليات من نوع آخر وأكثر توفيقا. إذ كما ذكرت في رسالتي المورخة يوم 5 الماضي، قام الجنرال لاهيت بفتح نيران البطارية، المركبة من 26 مدفعا طويلا ومدفعي هاون على القلعة المحصنة المشرفة على مداخل المدينة، وعلى المدينة نفسها، ولقد قام الجيش

بأداء ذلك العمل على أحسن وجه، كانت البطاريات على بعد يتراوح بين نصف ميل وميل من القلعة بسبب خداع البصر الناتج عن عدم وجود الأشجار في تلك المنطقة، وصفاء الجو، سقطت القذائف الأولى دون مرماها المرغوب، ولكن بعد عدة جولات تجريبية أدرك الرماة المسافة المطلوبة وبدأوا في إطلاق النار بدقة تصويب تدعو إلى الإعجاب. بعد أربع ساعات من القصف تَمّ إسكات مصادر النيران في القلعة، على الرغم من أن كبير الوزراء الجزائريين نفسه كان يقود المدافعين عنها معاونا بنفسه على تشغيل المدافع، وموزعا حفنات الذهب على رجاله لكي يشتري خدماتهم، وفي النهاية أشعل النار في مخزن بارود القلعة ناسفا إياها. وكانت قوة الانفجار الناتجة عن ذلك على درجة من العنف تسببت في تشقيق حيطان منازل تبعد مسافة ميلين من القلعة. وبعد وقت قصير من ذلك، طلب الداي من القنصل البريطاني التوسط، ووافق هذا على ذلك وقام بالوساطة، معرضا نفسه للعديد من المخاطر، ونجح في تجنيب المدينة فضائح اقتحامها عنوة، (وضمان) أمنِ وسلَامَةِ الداي الشخصية ورعاياه والحفاظ على أشخاصهم وممتلكاتهم. وفي اليوم التالي وفي الساعة الواحدة استولت

القوات الفرنسية على القصر والأماكن الأخرى المحصنة في المدينة وضواحيها، وهكذا انتهت عمليات القائد الفرنسي الحربية. ولم تكن عملياته الدبلوماسية أقل لفتا للنظر. وقد بدأت هذه العمليات بعزل الداي، وإعلان انتهاء السلطة التركية في إيالة الجزائر. وخلال الفترة اللاحقة قام بإرسال الداي وزوجي ابنتيه (آغا الإنكشارية ووزير البحرية) مع عائلاتهم، وثروة من الجواهر والذهب، تقدر قيمتها بمليوني دولار على ظهر سفينة إلى ماهون ومن هنالك يقال إنهم سوف يتجهون إما إلى نابلي أو ليفورن أو مالطا، ولقد كانت هذه الأماكن الثلاثة تتقاسم تفضيل الداي عندما كان هنا. ولقد قام الجنرال بورمونت كذلك بترحيل كل الأتراك غير المتزوجين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بألف ومائتي شخص إلى أزمير؛ أما المتزوجون الذين فضلوا البقاء هنا فقد قام بتجريدهم من السلاح. ويقال إنه ينوي هدم كل الحصون التي هنا وإرسال مدافعها إلى فرنسا. ولقد قام بتشكيل مجلس تنفيذي من حَضَرِ مدينة الجزائر، لكي يعاونوه على حكم المناطق التي استولى عليها، كما قام بتعيين عدد من الضباط الجزائريين الذين منحهم ألقابا

وواجبات مألوفة لدى السكان، وجعل هؤلاء الضباط على اتصال مع السلطات الفرنسية التي وجدها ضرورية لضبط المدينة، كما قام بإنقاذ كل الأسرى الفرنسيين الذين وجدهم هنا، ويقدر عددهم بمائتي رجل، وقام بإعادتهم إلى أوطانهم، وقام أيضا بالاستيلاء على خزينة الجزائر العامة، الذائعة الصيت، والحاوية على مقدار من الذهب والفضة والجواهر يقدر العارفون قيمته بمبلغ يتراوح بين مائة ومائة وخمسين مليون دولار، أكثر بكثير من التكلفة المحتملة لعملية الغزو.

إلى تلك الخزينة يجب أيضا إضافة قيمة (ما تم الاستيلاء عليه من) المؤن والأعتدة الحربية الحاوية على 2000 قطعة مدفع، منها 1000 مدفع نحاسي وكمية من أخشاب بناء السفن وفرقاطة تحت الإنشاء وعدة سفن أخرى.

لقد علمنا أن الجنرال (بورمونت) قد كوفئ على نجاحه الكبير هذا بإعطائه رتبة ماريشال فرنسا. ولكن على أية حال إن أثر انتصاره لم يتعد مرمى مدافعه، فالعرب المسيطرون على السهول، والبربر الذين يسكنون الجبال، لا يعترفون بسلطته ولا يخضعون لها، وعلى الرغم من كونه قد أنهى الوجود الفعلي

للجزائر كدولة قرصنة، إلا أن على المرء أن ينتظر ليرى ما إذا كان باستطاعته أن يقيد القبائل والأمم الوحشية التي كانت تعترف بسيطرة الدولة الجزائرية بسبب نفوذ الديانة المشتركة وسلطان الفتح القديم . وللقيام بهذا الغرض يقوم الجنرال الآن بإرسال قوة بحرية من 3000 رجل وسفينتي قتال وخمس فرقاطات إلى عنابة ميناء بايلك قسنطينة الواقع على بعد 280 ميلا إلى الشرق من هنا، والذي تحميه الآن حامية تركية صغيرة مما يجعل الاستيلاء عليه أمرا سهلا .

ولكن هذا النجاح، على العكس من احتلال مدينة الجزائر سوف يكون بدون شك ذا تأثير محلي، كما سيكون الحال كذلك بالنسبة لوهران التي يقال إنه يفكر بالاستيلاء عليها. لذا فإن القوة الفرنسية بعد أن تتوطد تماما في هذه الأماكن الثلاثة لن تبسط نفوذها إلا على جزء بسيط من أرض وسكان شمال إفريقيا. لقد بدا بوضوح، من قبل أن يصلني خبر رفض تعييني، أنّ واجبات منصبي الأساسية، قد ألغاها سقوط الحكومة التي كنت مفوضا لديها.

فالمشاغل الدبلوماسية في هذا المكان سوف تنتقل إلى سفيرنا في باريس طالما احتفظ الفرنسيون بهذا البلد. وأي

سلطة ستبقى لمكتبي هذا لن تتعدى سلطة وكيل تجاري عادي، إذ كما أن إشراف هذه القنصلية على غيرها من القنصليات الأمريكية في شمال إفريقيا، كان عائدا لتفوق أهمية هذه الإيالة على غيرها من دول إفريقيا الشمالية، فإن مسؤولية الإشراف هذه ستزول بالضرورة، مع زوال هذا التفوق، وفي تعميم بعث به القائد الفرنسي مؤخرا إلى كافة القناصل المعتمدين هنا، أوحى ذلك القائد الذي لم يحدد ذلك التعميم فترة أوطبيعة سلطته الخاصة، بأنه يعتبر واجبات القناصل في المستقبل قاصرة على الشؤون التجارية. وتجدون طي هذا الكتاب نسخة من ذلك التعميم الذي سوف تلاحظون التضارب في دلالته. إذ أن إعادة فتح القنصلية الفرنسية هنا قد يعطي الانطباع بأن هذا البلد على وشك استعادة استقلاله من فرنسا، بينما القول بأن على وكلاء الدول المسيحية الأخرى تسيير الأمور الخاصة بأممهم عن طريق القنصل الفرنسي يجعله موظفا في حكومة هذا البلد، يتداول الاقتراحات ويناقش مصالح الدول العائدة لعلاقتها مع الجزائر. وباختصار بينما جزء من المذكرة يعتبر المسيو ديفال قنصلا لفرنسا لدى حكومة الجزائر؛ جزء آخر يعتبره وزيرا للشؤون الخارجية في هذه الحكومة، ولاعتقادي

بأن من الأفضل ترك توضيح هذا التناقض للأحداث اللاحقة، أو لاختيار من سوف يخلفني في منصبي هذا. فإنني لم أرد على هذه المذكرة، بل قمت بزيارة قنصل فرنسا لغرض إظهار اعترافي الرسمي بصفته الوظيفية. كما أنني قد قمت كذلك بزيارة مماثلة للقائد الفرنسي، ولكني على العكس من زملائي القناصل الآخرين، لم أقم بتلك الزيارة، إلا بعد أن تم عزل الداي.

حتى حينذاك شعرت بأن من الملائم للطبيعة الحرة والشهمة للولايات المتحدة أن أقوم أولا بزيارة الأمير المخلوع. قبل أن أقوم بزيارة الجنرال المنتصر، وأن أؤدي للداي وهو في حالة انحسار سعده، فروض الاحترام نفسها التي كنت أؤديها له عندما كان في عزه وسلطانه. ولقد أثار تصرفي هذا في نفس الداي عاطفة جياشة لم يستطع إخفاءها وهو الرجل المعروف بالصلابة والوقار.

إنني لا يمكن أن أعرف ما ينوي الفرنسيون القيام به حيال درجة الإخضاع التي سيعرضون لها هذا البلد، وبما لا بد وأنكم قد تعرفتم على هذه النوايا عن طريق السيد رايفز فإنني لا أريد أن أثقل عليكم بتخرصاتي أكثر من أن أقول إنه يبدو أن من المحتمل أن الفرنسيين سيقيمون حكومة عربية

خاضعة لفرنسا ومرتبطة بها. إن كنت قد أثقلت عليكم ببعض التفاصيل في هذا الكتاب، فذلك لأني لم أستطع أن أنتزع من نفسي الاهتمام العميق بالأحداث التي رافقت الصراع الأخير والدمار النهائي لهذه الحكومة، والتي خلال حياتها التي تميزت بالكثير من الجرائم والحماقات ، قد مارست خلال أربعة قرون، مقدارا من النفوذ ليس بالضئيل على شؤون العالم، وعلى الرغم من التأثير السيئ لسمعتها الرديئة إلا أنها كانت منذ سنوات خلت قد بدأت بتسيير أمورها بإنصاف وحسن نية، وقد يكون الشعور نفسه لديكم، دافعا لكم لكي تغفروا لي طول هذه الرسالة وتتسلموها بصبر، وتتقبلوا معها مجددا تأكيد احتراماتي وتقديري الذي لي الشرف أن أحييكم به.

هـ. لي.

نص الوثيقة باللغة الأنجليزية

Algiers 15th July 1830

Sir

I took occasion a few days ago, by an opportunity for Gibraltar, that unexpectedly presented itself, to acquaint you that a report of much probability in its shape and circumstances had reached here from Mahon, of my having been superseded by the appointment of our distinguished fellow citizen Comre Porter. To this decree of severe justice I bow with submission and humility - sustained by the hope that my conduct here has not merited disapprobation, and by the consciousness of being, however inconsiderable and unworthy in the estimation of my country's authorities, unsurpassed in filial love and veneration for her soil, her character, her liberty and laws. This irrepressible and ardent sentiment I offer as security for manifesting the same zeal in her service, now that I am disowned, which animated me before the fact of my being superseded was known to me, did the circumstances in which this country is now placed afford any occasion for its display. But the deposition of the Dey and his deportation [to a][41] distant country, seem to have suspended, if not altogether [annulled][42] the principal functions of the office with which I [am? was?][43] charged.

On the 5th last I had the honour to report to you the capture and occupation of this city by the French army under the command of Genl the Count de Bourmont, after a series of varied and successful operations which commenced with his landing at Sidi Ferrutch on the 14th of June, and had just then terminated. Were it within the compass of my duty to characterize this short campaign, I should observe that although the French Commander gave no example of that daring enterprise and rapid combination, with which the students and actors of French warfare have of late years been familiar, his measures were as bold and as vigorous, as that sort of prudence which leaves nothing to fortune, rendered practic-

able. As he never advanced without forcing his enemy, so he never halted without fortifying his position, nor extended his line of operations without giving additional security to their base. The route from Sidi Ferrutch to Algiers is a distance of about twelve miles, along the base of a promontory of which Cape Caxeen, five miles west of Algiers and nine east of Sidi Ferrutch, is the headland. Though hilly and covered for the most part with a low and prickly brushwood, with here and there hedges of Aloe, Cactus, and Mastick, it is unobstructed by forests, rivers, or mountains, passable for cavalry, and without much difficulty for Artillery, and pervious at once to the most extensive **coup d'œil**. Yet with but a disorderly and fugitive resistance from the Arabs and Kabyles, Gen Bourmont consumed fifteen days in coming within cannon shot of the fort which constituted the principal defence of Algiers on the land side — having at the same time often inferior and never superior numbers opposed to him. His force is stated to amount to 45,000 land troops, besides the cooperation of a fleet manned by 15,000 mariners, and I [don't][44] think the tumultuary force opposed to him has at any moment reached 50,000 men. On the 19 th he advanced from [Sidi][45] Ferrutch early in the morning and surprised the camp of the [Aga][46] at Starwelly, about three miles on the route to Algiers, bayo [neted][47] many of the Turkish troops, dispersed the rest, and took a quantity of treasure and military stores. On the 24th the enemy collecting in force in his front and on his flanks, he moved forward again about 8 o'clock in the morning in eight columns, and driving before him the sharp but undisciplined opposition of the Aga's army took possession of the second camp of that chief, and occupied a range of heights in front of it, about 4 miles from the town. On this occasion as on that of his former advance, the Arabs and Kabyles fled past the town along the sea shore to the eastward, leaving no army between the French General and Algiers. Holding this position and continuing to strengthen it and his communication with the Fleet, as well as to bring up ammunition and artillery, up to the morning of the 29th, Count Bourmont was contented to repel the skirmishing and reply to the cannonade of the Aga, which were brisk and sanguinary, until the dawn of that day, when having had the eldest of his four sons who

accompanied him, mortally wounded, he attacked and routed his irregular adversaries again, who a third time fled beyond the city, and left it defended only by its works. Although I could not help sympathizing with the invaded party in this war, and could not view without pity the courageous but ineffectual resistance, which they opposed to the prowess and skill of the French army and commander, I do not know that I ever experienced a prouder glow of sympathy and triumph, than when I first beheld from the terrace of our garrison, the victorious Christian troops driving the Barbarian hordes before them, and crowning the heights in the full view of Algiers — their kindred banners streaming proudly into the wind, and their conquering arms glittering in the morning sun. — As I had the honour to mention in my letters of the 21st of April and the 9th of May, the Consuls of Spain, Naples, Denmark, and Sweden with such members of their families as remained here during the war, and with all the Christians and a number of Jews dependent on them, were united in a large fortified house, and organized in the form of a garrison, which was protected by the American flag and placed by their unanimous choice under my command. From the moment that the apprehended descent of the French drew from the plains and mountains to the vicinity of Algiers, the bands of Arabs and Kabyles upon whose exaggerated numbers and fanatical courage the Dey and his Janissaries relied but too confidently, the houses of the four Consuls above mentioned were too much exposed to insult and pillage to be habitable, and mine, though from its position less liable to intrusion, was by no means safe. On the 26th of May therefore we were constrained to leave our several residences and to repair to the fortress which with the consent of the Dey we had selected and prepared to shelter us and our numerous dependants in a safe neutrality until the storm of war should have passed by and the waters of contention have subsided around us. The enclosed papers, being copies of our constitution, and of my first order for the regulation of the garrison, will explain to you the nature of our association and apprise you of the pressure of danger under which it was formed. Its event was I am happy to say most fortunate, for while the houses around us, the property of Moors and Jews, were cruelly plundered, with the fre-

quent loss of lives among the latter, we maintained ourselves in perfect security and with but slight exceptions in perfect quiet. Each time that the advance of the French drove the Turkish forces along by our establishment, it was apprehended that so small a body of Christians would present too tempting an object for their revenge and mortification — while each time that they returned to the contest it seemed probable that confidence and cupidity would prompt them to attack us. Our respectable defences, and favourable position however, not only saved us from their violence, but gave us the satisfaction of knowing, that we were the means of protecting many families in our neighborhood, until the French got possession of the ground. This as before stated occurred on the 29th when the French commander sent a party with assurances of respect and assistance, but proposing to occupy our position as a necessary point of support for his left flank. In accepting gratefully his offers of courtesy and protection I thought it my duty, by declining to yield our place to him, to maintain the neutral position held by the United States, and the Countries of the Several Consuls under my flag, towards France and Algiers, and the friendly one in which our respective credentials placed us all in relation to the latter. I went so far as to request that he would not occupy the immediate environs of our garrison with troops, and more especially, as one of his officers had intimated, with a battery, in as much as it would infallibly draw on us the fire of the Dey's forts; and involve our families, in which were included ladies and children, in serious danger. This request I enforced by observing that hitherto our neutral character had been scrupulously respected by the Barbarians, and that I hoped the measures of the French General would not force us to regret the approach of a Christian army. I must suppose that either this appeal or a closer view of the ground, induced him to dispense with the creation of a battery near us, but it seemed a matter of military necessity that he should occupy the height on which our garrison was situated. This was done by General Achard with the Bigade (sic) he commanded, and though it was done in spite of my remonstrances, I have no doubt that the operation was dictated by military prudence, and I bear witness that it was conducted with fairness and delicacy. He ordered a

guard of 40 men to be detailed for our use, and upon hearing that my father and the father of Baron Lt Liman had been acquainted in the war of our revolution, he directed that officer to take command of the party. This arrangement, together with the immediate and continual concourse of French officers of all ranks to make observations, and enjoy the view of the fleet, the armies, the forts, and the city from our terrace, had the immediate effect that was apprehended, of attracting to us the fire of the Turkish forts, one of the first balls from which was very near killing Genl. Achard himself. As we could not remove the French troops, nor refuse the duties of hospitality to their officers, our table and our terrace were constantly crowded, the former the only Christian one within their lines, and the latter the most commanding point of view in the environs of Algiers. Of this the consequences were a great increase in the expense of our establishment and the frequent direction of bombs and bullets against it. The first we trust our governments will reimburse, and the last we escaped by means of the peculiar situation of our fortress, which was so placed in relation to the ground on which it stood and the guns which played on it, that it was almost impossible for a ball to rise high enough to reach it without passing over it. It was however an unpleasant state of exposure that we were placed in, and for the ladies a most painful one from the 29th June to the 5th July. I am sorry to observe that the French troops were guilty of many licenses, which though more suitable to the character of savages, their barbarous adversaries did scarcely equal. On the morning of the 29th while their officers were partaking of our refreshments, a party of soldiers broke into the house of the Neapolitan Consul, which had the flag of Naples flying on it, shot his gardener, a European, his booker a Jew, and the daughter of his booker. This outrage has been attempted to be justified by the improbable assertion that the gardener and the Jew had presented pistols against the French soldiers — an assertion which these soldiers make and which the victims of their brutality cannot contradict. It is with more plausibility palliated on the ground of its having been committed in the heat of blood and flush of conquest, when the French troops had just forced the Arabs from the last stand they made in the field. This excuse I should have been

inclined to confide in had they not subsequently in cold blood broken open and robbed the houses of the Swedish and Danish Consuls, and finally my own, destroying property of much value in the two former, and finding but little to plunder in the last. From what I could learn their disposition to rapine exceeded that of the barbarians greatly, and was not repressed by a single instance of punishment. Their outrages took place between the 29th and 5th July, which interval was employed by their commander in opening trenches and constructing batteries against Fort de l'Empereur, a castle of considerable antiquity and strength which commanded the city and constituted its principal defence on the land side. From this fort, from various smaller ones, and from the fortified walls of the palace, the Turks kept up an incessant fire of shells and shot on the men in the trenches, and on such parties of French as shewed themselves on any point within the range of their fire. Our garrison which had before been respected, was as I have already mentioned, frequently aimed at — and we found ourselves unable to occupy or to leave it with safety. For as long as we were surrounded by the French, the Turkish batteries would play on us — while, if we withdrew from the neighborhood and protection of the French, having once been associated with them, we were sure to incur the hostility of the Arabs, and be, in an unfortified house unable to repel it. We decided therefore to remain, ladies children and all — and fortunately escaped with a collection amounting to about 200 persons, without the loss of a single life. During this time, as from some want of correspondence between the services of the navy and the wants of the army, the officers and men quartered near us were often without rations, our provisions were necessarily consumed in great quantities. I remember at one time we had to give eleven muttons for rations for the men. We did this, as we entertained the officers, with pleasure, a pleasure which I believe I felt with peculiar force, as I found among them names which were distinguished in our revolution — the duc de Moailles, de Lauzim, the comte de Granmont, Baron St Simons & Le young Canaciers, who seemed to have inherited the friendship of their fathers for the U. States. To the want of efficiency in the connection between the fleet and the army I presume is to be attributed

the length of time which elapsed between the commencement and the completion of the French works — the cannon for mounting which was not brought up from Sidi Ferrutch until the evening of the 3rd a route of about 10 miles — secured against annoyance by a chain of redoubts. The military cooperation of the fleet was feeble and ridiculous in the extreme. On the 1st of July a squadron consisting of 2 line of battle ships 15 frigates and several smaller vessels, commanded by vice Admiral Duperre and Rear Admiral Rasamel, bore down with a free breeze off the land from Cape Caxeen and keeping abreast of the small forts which defended the coast from that cape to the town, opened a fire on them in succession, which we supposed was intended not only to divert the Turkish batteries from annoying the army and interrupting their works, but to destroy all the forts exposed to it. Our position about 12,000 feet (sic) immediately above this part of the coast gave us and a large number of the French officers who came to witness it, a fair and close view of the whole operation. Although the ships passed in succession each succeeding one seeing the effect of her consorts shot, and though most of them fired more than one broadside, scarcely any of their balls reached the shore, and but 2 or 3 any of the forts to which they did not the least damage, and so far were they from silencing even the smallest among them, that two of these seeing immense numbers of French officers about our house, renewed their fire on us in the midst of the French cannonade. Some of the officers who were of the highest rank ridiculed, some execrated this display, while others explained it as a mere essay for the purpose of getting the depth of the water and the distance of the forts preparatory to a real and effective attack. The army continuing to suffer much from the incessant cannonade of the Turks on the working parties and guards, on the 3rd the fleet approached again from the same point, in the same order and in much greater force. We had the same advantageous view of this operation that we had of the former, as had a still greater number of French officers than had then been with us. The squadron now consisted of 7 line of battle ships, 15 frigates, 6 bomb vessels, some smaller vessels, and 2 steam boats one of which occasionally fired. The leading ship was a frigate, which performed her part

with gallantry and precision. She passed all the batteries from Cape Caxeen down to the most formidable works of the town — ranging along in point blank shot and pouring in her broadsides with unabated rapidity. Next followed the ship of the line bearing the vice Admiral's flag, but she kept at a greater distance and had but little effect. Each succeeding ship kept further and further from the land, and approached less and less near to the strong batteries of the town, so that the weight of this immense fire instead of being directed against the town and the strong batteries which defend the harbour, was expended on the inconsiderable forts which guard the approach to it from the West, not one of which did it silence. I had never witnessed such a cannonade before, and had no conception that such a weight of fire could be perfectly harmless. We did not perceive that it killed a single individual, nor have I since learned that it did. It may be computed that each broadside of the fleet threw about 700 guns and that on an average the ships fired three broadsides, so that 2100 guns were fired by the squadron without producing perceptible effect. They suffered but little injury, excepting from the bursting of a gun in the admirals ship — which because no other slaughter occurred from the great distance they generally took, produced I am told great sensation. This exhibition being without excuse or palliation, occasioned great mortification among the land officers — who did not conceal their chagrin and disappointment. It was probably the most signal of the many proofs to be found in the annals of France, of the total incapacity of that warlike nation for great exploits at sea. The next day being the anniversary of our independence, they commenced operations on a more suitable element and of a different character. As mentioned in my letter of the 5th last batteries mounting 26 long guns and 2 mortars, were opened by Gen[1] La Hitte the commanding officer of artillery against the fortified castle which commanded the approach to the city, and the city itself. This part of the service was admirably performed. The batteries were from half a mile to a mile from the fort, and owing to the deception occuring to the view here, from the clearness of the atmosphere and the absence of trees, the shells at first fell short of their mark, but after a few tentative rounds they caught the distance and the precision

with which they fired was truly admirable. After 4 hours fire, the fort was silenced, although the Algerian prime minister, who commanded it, assisted in working the guns himself, and distributed handfuls of gold among his men to purchase their services. At length he set fire to a magazine and blew up the fort. The explosion was so violent that it cracked the walls of houses two miles off. In a short time after this took place the Dey solicited and obtained the good offices of the English Consul, who at no small risk of his personal safety, saved the town from the horrors of a storm and secured to the Dey and his subjects protection for their persons and property. The next day at 1 o'clock the French troops took possession of the palace and the other fortified places in the city and its suburbs. Thus ended the military proceedings of the French commander. His political operations have been not less remarkable. These he began by deposing the Dey and declaring the Turkish authority extinct in this Regency. He has since sent off the Dey and his two sons in law, (the late Aga of the Janissaries and the Minister of Marine) with his and their families, and with a fortune in jewels and gold, supposed to amount to 2 millions of dollars, in a ship of the line to Mahon; whence it is said he is to proceed either to Naples, Leghorn or Malta, these three places appearing to divide his preference equally when he left here. Gen Bourmont has also shipped off all the unmarried Turks that he found here, amounting to about 1200, to Smyrna, and has disarmed the married ones who have chosen to remain. He proposes it is said demolishing the forts, and sending to France all the cannon. He has established a Moorish executive council, with whose assistance he governs his conquest, and has appointed various Moorish officers, with titles and duties familiar to the population, and placed them in concert with such French authorities as are found necessary for the police of the city. He has rescued the French prisoners that were here, about 200 in number, and sent them back in safety to their country, and he has obtained possession of the long descended public treasure of Algiers, amounting, in gold silver and jewels, according to the best conjectures, to the enormous sum of from one hundred to one hundred and fifty millions of dollars — much more than the estimated cost of the expedition. To this is to be added the value

of the provisions and military stores, including 2000 cannon, 1000 of which are brass pieces, a quantity of ship timber, a frigate on the stocks and other vessels. For this great success we understand he has received the baton of a Marshall of France. His conquest however has not extended beyond the fire of his cannon — The Arabs who possess the plains, and the Kabyles who inhabit the mountains neither recognize nor submit to his authority, and although he has evidently terminated the existence of Algiers as a piratical state, it remains to be seen whether he can impose adequate restraints on the ferocious tribes and nations which under the influence of a common religion and of ancient conquest, heretofore acknowledged its sway. In order to accomplish this purpose he is despatching an expedition of 3000 men, two ships of the line, and five frigates against Bona, the seaport of the Bey-ship of Constantina about 280 miles east of this place, which is held by a small Turkish garrison, that will probably be made an easy conquest. But this success will doubtless be more local in its effects than the occupation of Algiers — as will in all likelihood be the capture of Oran, which is said to be meditated — so that the French power after being firmly established on these three points of the coast will extend itself but slightly over the territory and population of Barbary. Before I was apprised of the rejection of my appointment it appeared but too evident that its principal functions had been annihalated by the overthrow of the government to which I was accredited. The diplomatic concerns in this quarter as long as the country is held by France are of course transferred to our minister at the court of that country, and the only authority remaining to this office is that pertaining to an ordinary commercial agent — for as its superintendance over the other Barbary Consulates was founded on the superiority of this Regency to the other Barbary Powers, it expires necessarily with that superiority. A circular which has lately been addressed by the French Commander to the Consuls here, though it does not define the nature or duration of his own authority, seems to consider the future duties of Consuls here as limited to commercial concerns. A copy of this circular you will find enclosed, and you will observe the confusion of inferences to which it gives rise. By reestablishing the French

Consulship here, it would appear that this country was about to regain its independence of France; while the intimation that the agents of the other Christian powers here are to transact the affairs of their several nations through the French Consul places him in the position of a functionary of this country and its gov [ernment] — entertaining the propositions and discussing the interests of nations in intercourse with Algiers. In short one part of the note considers Mr. Duval as the Consul of France, the other as the minister of foreign affairs for this Government. Considering it better to leave this inconsistency to the explanation of events or the examination of my successor I have made no reply to the note, but have waited on the Consul of France, for the purpose of shewing a ceremonious acknowledgement of his official character. A visit of the same kind I have paid to the French commander, but, unlike my colleagues, not until the Deposition of the Dey was completely effected. Even then I thought it more conconant to the free and magnanimous character of the United States, to visit the fallen prince, before I called on the successful General, and to pay the same respect to the former in misfortune, as I had been accustomed to shew him in the height of his power. This deportment, in spite of his national gravity and personal firmness, extorted the expression of deep emotion.

I cannot inform myself of the ulterior designs of the French govt respecting the degree of subjection to which they propose reducing this country, and as you may be acquainted with them through Mr. [Rives], I shall not trouble you with speculations farther than to say it seems probable that they will establish a Moorish regency, dependent on and tributary to France. If I have been minute and tedious in the details of this letter, it is because I have not been able to divest myself of a solemn interest in the events which accompanied the last struggles and final ruin of this government, which through its existence has been marked by crimes and by folly, has exercised for more than four centuries no small degree of influence on the affairs of the world, and in spite of the vitiating effect of a bad name, has of late years been conducted with commendable equity and good faith.

Something of the same feeling may perhaps induce you to pardon the length of this communication, and to receive without impatience a renewal of the assurances of esteem and respect with which I have the honour to salute you.

H. Lee

Recd. 7 Octr.

Algiers 16th July 1830

Sir

I took occasion a few days ago by an opportunity via Gibraltar that unexpectedly presented itself, to acquaint you that a report of much probability in its shape and circumstances had reached here from Mahon, of my having been superseded by the appointment of our distinguished fellow citizen Commre Porter. To this decree of severe justice I bow with submission and humility — sustained by the hope that my conduct here has not merited disapprobation, and by the consciousness of being, however inconsiderable and unworthy in the estimation of my country's authorities, unsurpassed in filial love and veneration for her soil, her character, her liberty and laws. These imperishable and ardent sentiments, I [illegible] as eagerly for manifesting the same zeal in her service now that I am discarded, which animated me before the fact of my being superseded was known to me, did the circumstances

الورقة الأولى من التقرير

myself of a solemn interest in the events which accompanied the last struggles and final ruin of this government, which though its existence has been marked by crimes and by folly, has exercised for more than four centuries no small degree of influence in the affairs of the world, and in spite of the vitiating effect of a bad name, has of late years been connected with considerable [illegible] faith. Something of the same feeling may perhaps induce you to pardon the length of this communication, and to receive without impatience the renewal of the assurances of esteem and respect with which I have the honour to [illegible] salute you

H. Lee

الورقة الأخيرة من التقرير

سقوط الجزائر

برواية شاهد عيان(*)

تقرير الحاج أحمد أفندي المأذون من قبل مفتي الجزائر سابقا كوز لحصار حاج عمر زادة أمين أفندي

(*) نُشر هذا التقرير لأول مرة سنة 1862بالجريدة الآسيوية من طرف الباحث أوتوكار دي شيليشتا الذي عثر صدفة على الأصل المخطوط باللغة التركية خلال وجوده باستامبول. بعد مقارنته بنسخة ثانية لا تختلف عن الأولى كان يحتفظ بها العا لم شارل شيفر ضمن مقتنياته الشخصية. أما صاحب التقرير الحاج أحمد أفندي فهو من مواليد الجزائر حيث عايش جميع الحوادث التي سبقت ورافقت سقوطها. هاجر بعدها مع من هاجر إلى الأناضول حيث تولى منصب قائم مقام إلى أن توفى سنة 1861. الترجمة إلى العربية تمت على أساس الأصل التركي والترجمة الفرنسية، ويُلاحظ على هذه الترجمة بعض الركاكة والأخطاء.

باسم الله لكل شيء سببا فأتبع سببا. إن سبب وقوع البلاء على جزائر الغرب، باستعلاء الكفار عليها هو حسين باشا صاندقلي، والي الجزائر، يوم 5 من شهر رمضان الشريف من عام 1243 (21مارس 1828)، وعلى إثر الكلمات القبيحة التي تبودلت بينه وبين القنصل الفرنسي بيير ديفال، لم يتمالك هذا الأخير نفسه من الغضب وهمّ بسل سيفه لولا أن وقع عليه الحرس القائمين على خدمة الباشا والذين كانوا حاضري المجلس. فهم الباشا بدوره بقتل القنصل وهو في حالة غضب شديد، لولا أن تدخل نائبه إبراهيم داي، الذي ذكره بحرمة قتل المستأمن. عندئذ تراجع الباشا واكتفى بضرب القنصل الفرنسي وطرده ذليلا من المجلس.

بمجرد التحاق هذا الأخير بمقر إقامته، أخطر بالأمر إلى ملكه شارل العاشر. يوم 5من شهر ذي القعدة من نفس السنة (20ماي 1828) وصلت إلى مدخل مرسى الجزائر أربع سفن فرنسية أين رست وأخذت ترسل إشارات طالبة من القنصل الالتحاق بها. في اليوم التالي وصلت رسالة من إحدى السفن تحمل نية إثبات عهد الأمان بموجب الصلح السابق،

بشرط أن ينتقل عدد من كبار أعيان الجزائر إلى ظهر السفينة لتقديم الاعتذار وإلاّ نقضوا العهد وباشروا العداوة. جوابا على ذلك حرر الباشا مكتوبا (موجها للقنصل) جاء فيه : «لا أحد طلب منك أن تغادر، فإذا أردت إثبات الأمان بموجب الصلح السابق، عدت بكل حرية مثلما ذهبت، وإلاّ فافعل ما بدا لك !» عقب اطلاع القنصل على مضمون المكتوب الصادر عن الباشا، أظهرت سفن النصارى بعض علامات العداوة ثم غادرت بعد ذلك .

في اليوم التالي، استدعى الباشا جميع سكان الجزائر من طائفة الافرنج وخاطبهم بقوله: «إذا أردتم أنتم أيضا أن تغادروا، فاعلموا أنني لن أمنعكم! ها هي الطريق! وإذا أردتم أن تبقوا، فلن أمنعكم! ها هي الجزائر!» فأجابوا جميعا: «لا نريد الذهاب، الخطأ خطأ قنصلنا، ليس خطأكم». يوم 15 من شهر ذي الحجة (28جوان 1828)، حضرت مع ذلك سفينة (فرنسية) إلى الجزائر وقامت بترحيلهم جميعا. يوم 15 من شهر محرم 1244 (28جويلية 1828)، أخذ حسين باشا في تجهيز سفن الإسلام التي تتأهب للإغارة على السفن التجارية التابعة لفرنسا لاستلابها وبيعها.

الغنيمة المتحصلة من البيع كانت تقسم حسب قانون البانجيك (الخمس). ردّ ملك فرنسا لعدم تحمله هذا الأمر بإرسال خمس سفن سدّت ممرات العبور الى الجزائر بقطع مداخل المرسى. في ليلة 12 من شهر ربيع الأول (22 سبتمبر 1828) ألقى الباشا أسطول الإسلام ضد سفن الكفر . في الوقت نفسه أصدر تعليمات للعلماء بقراءة البخاري الشريف والحَفَظَة بتلاوة سورة الفتح. أما باقي الأهالي فقضوا ليلتهم متضرعين إلى الله بنصر سيف الإسلام على سيف الكفر.

أخيرا مع طلوع الصبح حدث الاصطدام بين الأسطولين، فصاح جملة أهالي الجزائر مستمدين الغوث من الله محدثين غوغاء عظيمة. بعد معركة حامية، باشرت سفن الأعداء بالفرار وعادت سفن الإسلام إلى المرسى. في الأيام الأولى من شهر ربيع الآخر (أواسط أكتوبر 1828) ظهرت في الأفق اثنتا عشرة سفينة أكبر من التي فرّت ورست كلها قاطعة العبور من المرسى.

مع ذلك تمكنت بعض القوارب الجزائرية من الخروج عبر المرسى ليلا في اتجاه يجهله العدو. استمرت هذه القوارب

في مطاردة السفن التجارية الفرنسية التي كانت تباع فيما بعد في تونس وفي وهران الواقعة على بعد أربع محطات في اتجاه سبتة، وبعضها كانت تباع في الديار التابعة لفاس وفي الديار التابعة للإسبان. أما بخصوص الأموال المتحصلة من البيع، فكانوا يستلمونها في شكل بدل في الجزائر أين كانوا يعودون ليلا عبر نفس الطريق المجهولة من طرف أسطول العدو. في إحدى الليالي حبست ثلاث سفن جزائرية في عرض البحر إلى الصبح بسبب اصطدامها برياح معاكسة مما جعل العدو يكتشف أمرها ويهاجمها. ففرت سفن الإسلام وارتطمت بساحل زفران الوادي (مزافران)، على بعد خمس ساعات من الجزائر. عقب ذلك أضرم عساكر الإسلام النار في السفن ودخلوا برا إلى الجزائر. من ذلك الوقت، باشر الفرنسيون التماس الصلح حتى أن إحدى سفنهم المتكونة من صاريتين حضرت إلى الجزائر ثلاث عشرة مرة. لكن حسين باشا لم يقبل بسبب أن الفرنسيين أصروا أن يرسل إليهم مبعوثين إلى فرنسا لإقرار ميثاق الصلح في حضور الملك، بينما تمسك حسين باشا بأن يتم إقرار الميثاق في حضوره. لكن هذا لم يكن ممكنا

والباشا لم يعد يصغي لأحد. عندئذ اجتمع رؤساء الحرب وكبار أعيان الجزائر لِتَرَجِّيه، لكنه رفض، حتى إن محمد علي باشا والي مصر أرسل له سفينة خصيصا على متنها رجالا عاقلين بهدف إقناعه، لكنه لم يقبل كلامهم. كما أن سائر قناصل الدول عرضوا عليه التوسط للصلح لكنه أصرّ على رفضه. أحد القبطان الإنكليز تدخل هو أيضا، حتى إنه انتقل ثلاث مرات إلى إنكلترا خصيصا من أجل الصلح، لكن الباشا لم يصغ لكلامه. كما حضر (من الأستانة) عبد الرحمن أفندي ناظر ترسانة الحرب بمأمورية خاصة من طرف حضرت شمس العا لم (الخليفة العثماني محمود الثاني)، فأخفاه حسين باشا في مكان بحيث لم يعلم أحد بمأموريته. بعد كل هذا، خاطب الباشا العسكر بهذه الكلمات: «الجيش هو جيش الخليفة وفرمان الخليفة يأمرني بعدم إقرار الصلح مع الإفرنج. ماذا أنتم قائلون ؟» فصاح الجميع: «ما دامت هذه إرادة الخليفة فنحن على استعداد لأنْ نُقَطَّعَ إرباً في سبيل الدين». في أواخر محرم من عام 1245 (أواخر جويلية 1829)، وصلت سفينة فرنسية من طابقين، فنزل القبطان دُولابرُوطونيير إلى البر وتوجه بمعية سائر قناصل الدول

لترجي الصلح من الباشا، فرد الباشا على الجميع بالرفض. عندئذ ركب القبطان البحر وبينما كانت سفينته تبتعد عن الساحل، رشقت بالقذائف مما تسبب في عدة خدوش عليها. كان هذا مما أثار استنكار القباطنة (في الجزائر) قائلين: «ما ذا يعني هذا؟» أن نرشق سفينة تعلوها راية الإسلام (بحكم دخولها مرسى الجزائر)؟ إن هذا لمخالف للشرع والقانون، حفظنا الله من العقاب! في أوائل ربيع الأول (31 أوت – 19 سبتمبر 1829) استولت مفرزة فرنسية على محلة تاسرّة الواقعة على بعد 23 ساعة غرب قضاء الجزائر، فهاجمها العرب وكانت الحصيلة أسير وأربع وعشرون رأسا حملت إلى الجزائر. في غرة رجب الشريف (27 ديسمبر 1829)، وصل الحاج خليل أفندي ناظر الجزائر في إزمير في مأمورية خاصة من طرف دولة الصدر الأعظم خسرو باشا. لا أحد علم بمضمون هذه المأمورية إلا بعد إقامتي بإزمير علمت أنه قد قدم إلى الجزائر للصلح، لكن لم يُصْغَ لكلامه. في أواخر شوال (26 مارس – 4 أفريل 1830) ارتطمت سفينتان فرنسيتان بساحل المحلة المذكورة سابقا (تاسرّة) بعد أن نزل عسكر العدو إلى البر هوجموا من طرف العرب

وأحضروا منهم (إلى الجزائر) 96 سجينا ومائة وثمانية رؤوس. يوم 8 ذي الحجة (30 ماي 1830)، أوقف الباشا كلا من المدعو قَرَه مصطفى خوجة وكيركور إبراهيم، دلي إمام، ومحمد جاوش وتم إعدامهم جميعا ليلة عرفة مخاطبا الحرس بهذه الكلمات: «هؤلاء ينتمون إلى مجموعة الـ 27 الذين حاولوا إثارة الفتنة ضدي، أما باقي العدد فأرجو أن يكون مصيرهم مماثلا لمصير هؤلاء». وبسبب أن العسكر لم يقفوا على حقيقة الأمر الذي من أجله أعدم هؤلاء، تملكهم الذعر والشعور بالسخط والنفور من الباشا. عقب هذه الحادثة أقدم أعداء الدين يوم 13 من شهر ذي الحجة (4 جوان 1830) على محاولة نزول بسيدي فرج، المحلّة الموجودة على بعد 4 ساعات غرب الجزائر. حاول البافرلي إبراهيم داي صهر الباشا وقائد المحاربين العرب المقاومة على رأس فرقة من عساكره، لكن بسبب عدم التمكن من الكرّ أجبر على الرجوع إلى محلة أسْطَوَلِي الواقعة على بعد ساعة من سيدي فرج تقريبا. هنا انضم إليه ألف رجل ممن ينتمون إلى الحامية التركية المرابطة بحاضرة الجزائر، والتي كانت تضم 3000 رجل، بالإضافة إلى العرب الذين هرعوا من كل

الأطراف والجهات. يوم السبت 18 من شهر ذي الحجة (9 جوان 1830) هاجم عساكر الإسلام ملحقين بالكفار الهزيمة: نتيجة المعركة كانت عدد من الرؤوس والآذان التي أرسلت إلى الجزائر أين عمّت الفرحة عموم أهالي المدينة. بعد ذلك انعكس الأمر وألحقت الهزيمة بعساكر الإسلام. حينها استدعاني الباشا لإبلاغي خبر الهزيمة التي منينا بها، فرحت أحاول تهدئته بينما لحق بالهاربين الذين أقنعهم بالعودة إلى عين زرقا بالنصيخة والترجي. هنا وقعت معركة ثانية مع الكفار انسحبوا بعدها وتراجعوا إلى سيدي فرج أين توقفوا.

تجددت المعارك بين عساكر الإسلام المتمركزين بمحلة عين زرقا وعساكر الكفار المتمركزين بسيدي فرج من الصبح إلى نزول الليل وذلك لمدة اثني عشر يوما متتالية. في ليلة غفلة هوجم المسلمون وحوصرت قلعة الجزائر بخندق طوق أطرافها وأكنافها. في نفس اليوم تحركت سفن النصارى من سيدي فرج ودخلت مرسى الجزائر وباشرت بقصف المدينة بالمدفعية برا وبحرا بشكل متواصل و كثيف، إلى درجة لم يعد فيها بمقدور

الحامية المتمركزة بسفح الجبل والمسمى برج الإسبان المقاومة، فتركت المكان بعد أن أشعلت النار في خزينة الأسلحة مما أثار انفجارا هائلا زلزل أرجاء المدينة، مثيرا الذعر لدى الأهالي.

عندئذ استدعى حسين باشا كبار أعيان الجزائر للمشورة، فوجّه له الأهالي كلمات قبيحة متهمين إياه بكونه سبب هذه الحالة التي وصلوا إليها. في نفس الوقت أرسل الباشا القنصل الإنكليزي برفقة رئيس ديوانه والقبطان أرنؤوط حاجي لتحسس نية قائد عساكر الإفرنج.

فما كان من هذا الأخير جوابا على ذلك إلا إعطاء مهلة أربع وعشرين ساعة للاستسلام وإلا أخذ المدينة قهرا وغلبة.

بعد أن عرض البيان على الباشا رجح مع سائر وجوه المدينة خيار الاستسلام. أما أنا فلعدم تحملي هذا الأمر رحت أجمع المسلمين مذكرا إياهم بفضائل الشهادة، مبينا لهم أجر البيعة، فقاموا جملة بتجديد التوبة، وتسامحوا فيما بينهم، وساروا وراء هذا الفقير إلى أن قطعت طريقنا طائفة من النساء رمين بأطفالهن بين أرجلنا صائحات: «إذا كانت لكم الغلبة فنعم، وإلا فاعلموا أن الكفار سيهتكون عرضنا،

سيروا، ولكن عليكم قبل ذلك بذبحنا!» وأنا أحاول التهدئة من روعهن استدعاني الباشا ليقول لي: «اعلم يا ابني أنني لم أطع الخليفة، الذي لم يأذن لي بالتصرف كما فعلت، و لم ير مصلحة في ذلك، من أجل هذا وقع عليّ هذا البلاء. هكذا تكون نتيجة من يعصي الخليفة».

قمت بعدها بإبلاغ هذه الكلمات إلى العسكر مشيرا إلى أن ما دام خليفة الله غير راض عن القتال فالقتال منهي عنه شرعا، فصاح الجميع: «آه ! هكذا إذاً جرت الأمور! بعد أن تركنا الأهل وجئنا إلى هذا المكان البعيد لنحتمل الغربة خدمة للدين والدولة، ها نحن صرنا من العاصين!» وهَمُّوا بقتل الباشا. لكن بعد خراب الجزائر ماذا كان سينفع لو فعلوا ذلك؟ اللهم احفظ جميع بلاد المسلمين من هذا.

عند دخول الكفار المدينة هرع الأهالي رجالا ونساء إلى عتبة داري صائحين: «ما دام لا مفرّ من الموت فلنمت على باب عالم». لم يتحمل قلبى هذا المشهد فتحملت ذل وحقارة الذهاب إلى رئيس الكفار للتشفع لهم. وبعد ألف محاولة حصلت على عهد بعدم الغدر بمن أراد الذهاب وبحماية من يريد البقاء، وعدم النهي عن رفع الأذان المحمدي كما في

السابق، وأشهدت عليه سائر قناصل الدول بوضع أختامهم ورجعت إلى الأهالي المجتمعين عند باب داري وسلمت لهم العهد قائلا: «الجزائر ذهبت، يعيش الخليفة! أينما ولى وجهه فَسَيَرَى جزائر أرغد وأمنع». أخيرا حضرت هنا إلى (الأستانة) برفقة من هاجر في هذا الاتجاه. لكن استعدادي للجهاد في أي مكان لن ينقطع إن شاء الله إلى آخر رمق في حياتي.

نزول الفرنسيين إلى البر وانتصارهم(*)

(*) سيمون بفايفر. من كتابه: مذكرات، أو لمحة تاريخية عن الجزائر. تعريب: د. أبو العيد دودو، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.



١

ما إن نادى مناد أن الأسطول الفرنسي يقترب من الجزائر، حتى استبدّ الذعر والفزع بالمدينة كلها، وخرج جميع السكان إلى السطوح ليتأكدوا من ذلك بأنفسهم، وأرسلت المدافع طلقتين من عيار ستين رطلا، إشارة للجزائريين المقيمين حول المدينة، ليصلوا إليها بأقصى سرعة، وركبت الرسل إلى جميع بايات الدولة وشيوخها بقصد إعلامهم بالخطر المحدق بالدولة . وكنت قد نسيت التاريخ الميلادي، فلم أعرف في ذلك الحين لا اليوم ولا الشهر الذي ظهر غيه الأسطول الفرنسي أمام الجزائر، كنت أعرف فقط أن ذلك كان في صيف سنة 1830، أو في يزن (صيف) سنة 1245 حسب التاريخ التركي.

كان ذلك في الصباح الباكر عند شروق الشمس ، فحين بددت أشعتها ضباب البحر، بدا الأسطول الفرنسي أمام أعيننا، وكان يمتد على مسافة كبيرة، وقد ساعدته رياح الصباح الباردة على السير، فتقدم من المدينة بسرعة بالغة. وعلى بعد أميال منها نشرت السفن قلوعها، وسارت والريح تدفعها من الشرق إلى الغرب، مارة بالمدينة. إن عظمة الأسطول وقوته قد زرعتا الخوف في قلوب

الجزائريين. وكانت شبه جزيرة سيدي فرج قد اختيرت للنزول إلى البر، وتقع غرب مدينة الجزائر على بعد خمس ساعات، وقد استمدت اسمها من مرابط مدفون فيها داخل حصن صغير.

وعصر ذلك اليوم وصل رسول على ظهر جواد الآغا أفندي، الذي كان قد توجه مع بضعة آلاف من الجنود إلى سيدي فرج، إلى الداي وأخبره «أن الفرنسيين قد حطموا حامية سيدي فرج تماما، وأنهم نزلوا إلى البر على الرغم من مقاومته الشديدة، وأن عدد من نزل منهم إلى البر حتى اللحظة التي وجه إليه فيها الرسول، يناهز العشرين ألفا»، فَسَيَّرَ الداي رسولا يأمره بالانسحاب إلى هضبة أسطوالي، التي تحد سيدي فرج، واحتلالها والوقوف بها موقف المدافع إلى أن تصله القوات المحاربة من البايات والشيوخ. فامتثل الوزير للأوامر، وضرب الخيم فوق الهضبة، ونصب المدفعية الثقيلة، حافظ على الهدوء كما فعل الفرنسيون أيضا. ولذلك لم يقع شيء باستثناء المناوشات والاشتباكات الصغيرة التي كانت تحدث يوميا وتسبب فيها الجزائريون.

وقد تولى الآغا أفندي إبراهيم قيادة الجيش الجزائري، الذي كان ينضم إليه في كل يوم بضعة آلاف من العرب والقبائل بقيادة باياتهم وشيوخهم أو خلفائهم، فوصل باي قسنطينة إلى أسطى والي مع حوالي اثني عشر ألفا، وباي تيطري مع ثمانية آلاف، وخليفته ثلاثة آلاف، وخليفة باي وهران ستة آلاف، وشيوخ القبائل ما بين الستة عشر والثمانية عشر ألفا، وأمين الميزابيين مع حوالي أربعة آلاف، وبذلك أصبح الجيش الجزائري، بإضافة حرس الآغا أفندي وسكان الجزائر الذين تواصلوا إلى المعسكر دفعات كبيرة، يضم خمسين ألف رجل على الأقل، والحقيقة أن كلا من الداي والآغا أفندي كان يجهل مقدار القوات الجزائرية المحاربة.

وعندما تمركز هذا الجيش الجرار، وأخذ مواقعه فوق هضبة أسطى والي، أمر الداي بأن يتم الهجوم على الجيش الفرنسي وإفنائه في صبيحة اليوم التالي، وقد أثار هذا الأمر حماسا شديدا في المعسكر، ذلك أنه لم يكن أحد من المسلمين يشك في أن الجيش الفرنسي سيباد في اليوم التالي.

وفرح كثير من العرب والأتراك بالمعركة الشاملة التي كان موعدها صباح الغد، بحيث أنهم لم يحتملوا الانتظار والبقاء في المعسكر، فهاجموا الفرنسيين واشتبكوا معهم في معارك، استعملت فيها البنادق الصغيرة من الجهتين. وفي أثناء هذه المعارك حدث حادث في صفوف الجزائريين كانت عواقبه وخيمة عليهم في اليوم التالي، وساعدت على انتصار الفرنسيين.

كان حسين باشا قد قرر عند نزول الفرنسيين إلى البر جوائز يمنحها على الرؤوس التي تحمل إليه، وبما أنها كانت في بداية الأمر نادرة، فقد جعل لكل رأس، تشجيعا منه للجنود، ما بين أربعين وخمسين دولارا إسبانيا، وكلما كثرت الرؤوس قل ما يدفعه ثمنا لها، بحيث نزل السعر شيئا فشيئا إلى أن وصل أخيرا إلى خمسة دولارات، وفي النهاية لم يعد يدفع شيئا، بل كان يكتفي بتسجيل أسماء الجنود في سجلات خاصة، ليستطيع مكافأتهم بعد انتهاء الحرب. وذات يوم، حين كان سعر الرؤوس لا يزال مرتفعا، قتل انكشاري قبائليا من الجند، كان معه في دغل، وقطع رأسه ليأخذ عليه جائزة من الداي، ظانا أنه لم يره أحد، إلا أن

صديقا للقتيل، كان مختفيا خلف صخرة، رأى ما فعل الانكشاري بصديقه. وعندئذ أقبل القبائل على الانكشاري يريدون قتله، ولكن جمعا من الانكشارية حالوا بينهم وبينه.

ولما صمم القبائل على الأخذ بالثأر لقتل صديقهم في الحال، حاول الأتراك جهدهم تهدئتهم، وحين رأوا عناد القبائل وإصرارهم على الانتقام، اقترحوا عليهم حمل القاتل إلى الآغا أفندي، ليعدم على الأقل كما جرت العادة التركية في ذلك. فارتضى القبائل هذا الحل على أن يحملوه بأنفسهم إلى الوزير. وعندما مثل الانكشاري بين يدي الوزير، قال له إنه لم يقتل القبائلي عمدا، بل سهوا، إذ ظنه فرنسيا لدى رؤية رأسه العارية وشعره الطويل، فقبل الوزير عذره وسيره إلى الجزائر حماية له من انتقام القبائل منه وأخذهم بثأر القتيل. ولم يكتف الآغا بهذا، بل وقع في خطأ آخر، فقد أخذ يؤنب القبائل ويعاتبهم عتابا مرا، ويقول:«إنهم يستحقون أن يقتلوا سهوا، ما داموا لا يرتدون العمامة مثل بقية المسلمين». فاشتدت ثورة القبائل بسبب هذا الظلم، ولهذه الإهانة التي لحقتهم من الوزير، فقرروا الانتقام من الأتراك في أقرب وقت ممكن، وسرعان ما سنحت لهم الفرصة بذلك.

وفي صبيحة اليوم التالي سمعت في الجزائر طلقات المدفعية، آتية من جهة الغرب التي تهب منها الرياح، كانت إيذانا ببدء المعركة. وإن هي إلا لحظة حتى تردد صدى مرعب فوق الجبال، وبين الحين والآخر كانت تسمع زمجرات المدفعية الثقيلة ممتزجة بدوي أكثر من سبعين ألف بندقية، تطلق بالفتيلة الملتهبة. وفي العاشرة صباحا وصل رسول على جناح السرعة من أرض المعركة ليخبر الداي، الذي كان مهموما جدا، بأن القوات الجزائرية كلها قد هاجمت مواقع الجيش الفرنسي، وأن المعركة متلاحمة بين الجيشين منذ ساعات بدون انقطاع، وأضاف إلى ذلك أيضا أن الجيش الفرنسي لن يباد نهائيا قبل حلول المساء فحسب، بل إنه لن يبقى فرنسي واحد بالبر الجزائري إطلاقا.

وقد سر الداي بذلك سرورا عظيما، وخلع على ذلك المحظوظ الذي أرسل إليه ليبلغه هذا الخبر، وعلم الأهالي خبر هذا النصر العظيم الذي سيكون من نصيبهم، واستبد بهم السرور والبهجة سلفا، ولعلي كنت في المدينة كلها الوحيد الذي لم يصدق هذا الخبر، ومع أني كنت خائفا من نتيجة المعركة، فقد كنت أعلل نفسي بأن الجيش الفرنسي،

إن كان لا يفوق الجيش التركي شجاعة وقوة، فهو يفوقه ذكاء ودهاء. وكنا في المدينة نسمع هدير المدافع حتى الحادية عشرة، ثم تبع ذلك هدوء تام، وقد وقع في ظن الناس على العموم أن الجيش الفرنسي قد اندحر، بحيث أني سمعت بعض الجزائريين يقولون بأن المحاربين لم يقضوا على الفرنسيين كلهم، بل إن بعضهم سيحملون أحياء إلى الجزائر لتقطع آذانهم وتُسَيَّرَ إلى ملك فرنسا.

ولذلك عم الذعر والاضطراب المدينة عندما حمل الفرسان الهاربون حوالي الثانية بعد الظهر أخباراً تقول إن بعضا من المقاتلين قد تركوا حوالي الحادية عشرة ميدان المعركة، وذلك في الوقت الذي تلاحم فيه الفريقان تلاحماً شديدا، وبدت علائم النصر بجانب جيش المسلمين. ولم يكن أولئك المقاتلون سوى القبائل، فقد انسحبوا دفعة واحدة على حين غرة، وكأنما حدث ذلك استجابة لإشارة ما، وهربوا إلى الجبال وهم يهتفون: «لقد غلبنا، فلنهرب، ولينج بنفسه من قدر على النجاة». وقد نتج عن انسحاب القبائل أن شمل الاضطراب صفوف جيش المسلمين، فانتهز الفرنسيون هذه الفرصة، وصدوا هجوم المسلمين عنهم، ثم هجم الجيش

الفرنسي كله، والجنود يهتفون «هيا» و «يحيا الملك!» على هضبة أسطى والي.

وفي ذلك الحين اختلط الأمر على الجيش الجزائري كله، وعمت الفوضى بين صفوفه، وعجز عن الوقوف في وجه السلاح الأبيض الفرنسي، فتفرقت جموعه، وهي تهتف «خير الله» أو «ستر ربي»، وإذا بالفرنسيين يستولون على المدفعية الجزائرية ويصوبونها نحو الهاربين، مما زاد في خوف الجيش المندحر وسرعة انهزامه وهروبه. فوقع في أيدي الفرنسيين مدافع عظيمة، وعدد من خيام المعسكر التركي، يتراوح بين الستمائة والثمانمائة، وجدوا فيها كثيرا من الأسلحة والزرابي الرائعة، وكذلك كمية من التبغ والبن وغيرها من المواد الغذائية. هذا بالإضافة إلى بضعة آلاف من الدواب، التي حمل عليها الأتراك الميَّالون للراحة أمتعتهم، وآلاف أخرى من الأغنام، وهكذا تحول جيش المسلمين، الذي كان قبل ساعات رهيبا مرعبا، إلى كتل هاربة.

فبينما فرت جموع العرب والقبائل إلى الجبال بأقصى سرعتها، عاد سكان المدينة والانكشاريون إلى الجزائر، وقد

استولى عليهم الذهول والانكسار، حاملين معهم عددا كبيرا من الجرحى، وقد بقي مع ذلك آلاف من القتلى والجرحى جرحا خطيرا في أرض المعركة، وكان الطريق كله من أسطى والي إلى الجزائر مغطى بالجرحى، وتسلل الكثير منهم إلى الأدغال، حيث عثر المسلمون على بعضهم فيما بعد، والفرنسيون على بعضهم الآخر، من بينهم عدد من الموتى، الذين نهشت لحومهم الحيوانات المفترسة.

دخول الفرنسيس للجزائر

أبيات من قصيدة الشاعر الشيخ عبد القادر(*)

(*) Revue Africaine 1930 pp. 229-236

وقد أعاد نشرها الدكتور جمال قنان في كتابه: «نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر»، المنشور في ديوان المطبوعات الجامعية. ولكنه حذف منها بعض الأبيات، لذا ارتأينا إعادة نشرها كاملة، كما نشرت في المجلة الإفريقية، مجلد 71، لسنة 1930.

دخول الفرانصيص للجزاير

من كلام الشيخ عبد القادر رحمه الله امين

بالحمد نبتدا ذا القصة نعيدها • استغفروا وتوبوا يا مسلمين

نوصي على صلاة احمد لا تنساوها • تفكك من القصايص ونصب الوازنين

هو يفكك من جهنم واهوالها • سيد الرجال شفيع المذنبين

سيد الانس والجن وسيد اسيادها • محمد التهامي مصباح الدين

صلوا عليه قد الدنيا بتمامها • صلوا عليه الف يا مذنبين

كثروا بالصلاة على لامجد طه • يوم الخميس والجمعة ولاثنين

في ليلة الفيركيف يموت نصيبها • اينال النعايم وحورات العين

الفايزين راهم نالوا بنسابها • بصلاة سيد لامة جد الحسنين

صلوا عليه قد الدنيا واشمانها • ما دمنا نعرفوا واحنا حيين

بيت

توبوا استغفروا للمولا • هذا اخر الزمان ادركنا

فيه الفتاين وكل بلا • هنا الموق ما كان امنا

الشَّعْبْ نْطَمْ كُلْ قْبِيلاَ * مَا جَا الاَّ زْمَانْ الْفْتْنَا

مَنْ عَاشْ حَالْتُهْ لاَ حَالاَ * وَالِّي مَاتْ ذَاكْ تْهَنَّا

هَذَا الْكْلاَمْ لَلْعُقَلاَ * وَالْعَارْفِينْ هَذَا الْمَعْنَى

أمَنْ دْرَى يَا فُضَلاَ * خَسْرَاهْ وِينْهَا مَرْقَتْنَا

سُلْطَانْتْ الْمُدُونْ الْجُمْلاَ * وَلاَّتْ غِيرْ فِي يَدْ اعْدَانَا

وَلاَّتْ لَلنْصَارَى شِيطِينْ الدِّينْ

مطلع

الأيَّامْ يَا اخْوَانِي تْبَدَّلْ سَاعَاتْهَا * وَالدَّهْرْ يْتْقَلَّبْ وَيْوَلِّي فِي الْحِينْ

بَعْدْ كَانْ سَنْجَاقْ الْبَهْجَة وَجَاقْهَا * الاجْنَاسْ تْخَافْهَا فِي الْبَرّْ وَبْحَرِينْ

أمْثِينْ رَادْ رَبِّي ذَوْقِي بِمْجَالْهَا * وَامْطَارْهَا أهْلْ اللهْ الْمَصَالِحِينْ

الْقْرَانْصِيصْ حَرْكْتْ فِيهَا وَخْدَاهَا * لاَ هِي مْيَاةْ مَرْكَبْ لاَ هِي مِيتِينْ

بْسْفَايْنُهْ يْقَرْنَصْ فِي الْبَحْرْ قْبَالْهَا * كِي جَا مَنْ الْبَحْرْ بْجْنُودْ قْوِيِّينْ

غَابْ الْخْلَفْ يَادْرِي وَتْلَفْ حْسَابْهَا * الْيُومْ جَاوْ لَلْبَهْجَة مْحَقَّدِينْ

وَالِي قْلِي لِلْجْزَايْرْ يَا نَاسْ حْزِينْ

بيت

الكلب يبتر رقب للمرضى صائبها * شاف المدافع لوجهه منصوبين

من جهة البحر فاع الناس تخافها * برج البنا منه كي مضعورين

يبرم شبعانه وتنسلم قد امها * في سيدي فرج نزل ذا اللعين

لمواجل البحر تحكي لكت مطوها * الاوطان والسهل ثم شعاب اخرين

ثم المحال في يوم السبت وجابها * والسبت ماتوا فيه من المسلمين

المومنين جزعت في وصفارها * الابراج والطيابن.... بالمومنين

مبطلت الصبايحية تنفد في نانها * الاسلام كان فيه من المجاهدين

امنا الناس تطهروا وتبان اخيارها * دوت الجهاد خير من الي حيين

حور الجنان راها تزهرت باموالها * ابواب النعيم للامة مفتوحين

الموت لا رتها واحيانا زادها * والصبر لا تكونوا في خيفانين

ظل الطراد يوم الحد والاثنين

مسطلع

انطلقت المعارك طلقت في اتفاقها * وتقبرتعوا تكاحلهم في الدين

البرية تستنبه ولواطن في بلدها * والتوكل تشمس يا تمامين

مَاذَا ابْطَالْ مَاتَتْ وَاخْلَاتْ دْيَارْهَا * رَاحُوا اثْرَ وْجَوَامَعْ حُورَاتْ الْعَيْن

لِاهَدّ ابْرَاهَمْ رْكَبْ وْبَرَعْ بِي شَاوْهَا * وَالْبَايْ وَالْخَلِيفَة خْدَاوْا الْيَمِين

لِلْبِيضْ وَمْلُوهَا وَخْدَا وَاعْقَابْهَا * مَاذَا مَنَ الْعَسَاكَرْ جَاوْا مْشَعِيتِين

مَاذَا مَنَ الرْيُوسْ جَابُوهُمْ اسْيَادْهَا * مَاذَا مَنَ الْبَرَايَسْ الَامَشْهُورِين

انْهَدْتْ الْجْزَايَرْ وَدْبِي مِيجَالْهَا * زَلّ الْكْلَامْ مَنْهَا يَا مْسَلْمِين

بيت

زَلّ الْكْلَامْ وَذْرَفْ عَنَّا * وَافْتَرْقَتْ الْفْرُوعْ وْرَاحَتْ

مَاشِي هَاكْذَا ظَنِّينَا * فِي الْمُومْنِين هَذَا بَايَتْ

يْحَسْبْنَا عْلَى مْرْعْنَا * خَلْفَا كْثِيرْ يَبْنِي ثَبْتْ

بِي لَاحْجِيرْ وَالْجْبَانَا * شُبَّانْ لِلْبْلَا تْشْقَاوْتْ

أَعْلَى اسْوَارْهَا تْشَبَانَا * يَبْغِي الذَّمْ غِيرْ مْفَلّتْ

لَاكِينْ بِالْحْزَنْ حْزَنَّا * مَنْ بَعْدْ عَزْهَا وَانْهَانَتْ

حَتَّى [illegible] * [illegible] الْكِلَابْ [illegible]

البلاد [illegible] * حتى [illegible]

مطلع

أمعى بلا طراد هذا الكلب خذاها * وادى اموالها اخوان الشياطين

كيف جار على سطوالي وخذاوها * بطبزن والعساكر والشجاعين

زادوا خذاوا قهوة لابتيار وديارها * وتسبطوا لبوزريعة في الحين

قدام الصنوبر نزل اثقالها * وخذاوا برج سيدي مولاي حسين

في الليل راحت الروم ضربت طنبورها * والمومنين تبكي يا مسلمين

البعض راح والبعض صبر لطرادها * غدوة في الجنائن نحو اليومين

المومنين هامت خلات اوطانها * وافترقوا على البلدان مساكين

الصبر يا امة محمد لاياتها * هذا ما قضى رب العالمين

من ذري على الجزاير وعلى تحصانها * وعلى رجاقها نزلت فيه العين

حسراه وين دار السلطان وناسها * سدوا وجاوا ليها اوجوه اخرين

حسراه وين باباتها مع قيادها * يا من ذري على دورك الصباحين

من ذري على دورك العشات متاعها * من ذري على دورك التوباجيين

حسراه على الشرايع وعلى حكامها * وعلى مواضع الحكم المعزوزين

حسراه على دورك الحوانت طقاتها * حسراه وين الاتراك الصناصين

بيت

حسراه على رجال البهجة * اعطاوا مايته وانقلبوا

القراصيص ولد الدلجة * من كل جيه جاو يذبوا

كي البحر وايض على الموجة * والواد كي يجي بشعابه

الوقت كيف قرب وجا * معلوم كل شي بسبابه

عم على وطن متيجة * ارجا على الثنية هبوا

هبط على طريق المرجة * والناس من الجنان هربوا

والمومنين ضجت ضجة * حتى الصغار منها شابوا

نسوان بناتين فراجة * هذا البلا ربي جابه

يا سامع الدعا في الدجا * للاسلام بالدعا وطلبوا

مطلع

تهنى البلاد وتزول ڨاع احزانها * ويزول ذا الظلم على المسلمين

حسراه على البلاد وعلى قضاتها * علمات البلاد مصابح الدين

حسراه على الجوامع وعلى خطباتها * ومنابر الرخام الى مرصعين

حسراه على الصوامع وعلى آذانها * وعلى ادراسها ثم الحزابين

حسراه على المساجد ملّت فيانها • فضاوا اليوم يا سيدي ملبّسين

حسراه وين نغماتها وين ذكارها • وين البيوت وغرف المخصيين

ولّات فيرولية بنعلت ارساتها • ماذا يقهر المنكر ذا اللعين

تمكّنوا الروم فيها وتبدّل حالها • تهدّت فيز ذرك الي منجوبين

دار القيصرية هدّوا حيطانها • قلّعوا الرخام وذرابز منقوشين

اشبابك الحديد الي في طيقانها • نحّروهم الخوارج عديان الدين

قالي بلانصة القصارية منارها • بعد الكتوب فيها والقارين

الجامع العظيم الي كان لمدانها • قدوة فيز نقمة في المسلمين

بيت

يا سامعين هذا القصة • خليوا ذا الأمر يتعرّف

حسراه وين ذيك المرسة • وغنايم القهاوى وملف

اظهر مليك بهم رشى • بتناجى الطوير ترفرف

فرصيان داخلة للمرسى • فداش من فيز مكتف

اكافرين كانت بفضة • لاجناس قاع فيها تحلف

منها النجوس ولات نسا • من جا يطل يمشي زاعف

أبطال يأتيني للنصره • والي رجيل منها خايف
خلفوا المبارزة في الأيام الغابرين

مطلع

يا خالق الغبراء نتوسل بطه • رب وجعل ليه سلطان حسين
ويعود في الشرايع هو سلطانها • يحكم بالشرع والعدل المبين
بجاه الكعبة وجميع اللي زارها • والساجدين لله والراكعين
من بعد النبي يا الخالق نرجعوها • والزوار ان تكونوا فالطيبين
يا غافر الذنوب اغفرلي قالها • واغفر ذنوب عبد القادر مسكين
خلاه من المغاصي والشدة دارها • يغفرليه يا رب العالمين
يغفرلي أمي وأبي واخواتها • والسامعين وأهلي والحاضرين
يجمل شملهم في الجنة وجنانها • بجاه سيد الأمة طه الأمين
وابني على الجزايرنا ناس عزيزين

قصيدة الشاعر المفتي محمد بن الشاهد في احتلال الجزائر (*)

(*) من كتاب «تجارب في الأدب والرحلة» للأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله، والتعليقات له.

أمن صولة الأعداء سور الجزائـــــــر

سرى فيك رعب أم ركنت إلى الأشــر

لبست سواد الحـزن بعد المســرة[1]

وعمت بواديك الفتون بلا حصــــــر

رفضت بياض الحق يوما فأصبحـــت

نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور[2]

ولثم درس العلم والجهل عسعـــس[3]

ونادى بتعطيل العلوم على النشـــــر

وناح على الأسواق طير خرابهــــــا

فأصبح فأس الهدم يُنبِئُ بالغـــــــدر

أصبت بسهم من عيـــون سهامهـــا

تراد عن المعيان بالشفع والوتـــــر

---

(1) كذا، والظاهر أنها «مسرة» بالتنكير.

(2) في الأصل التاء في «رفضت» مشددة، والقاف في «الحق» مفتوحة ومشددة. وهو خطأ. ولعل الشاعر يقصد «بالأمان» وليس «بالأماني» كما وجدناها وتركناها.

(3) في الأصل السين الأخيرة مفتوحة بفتحة واحدة. وهو خطأ في الوزن.

فأظهرت للأعداء وجه سلاحـــــه[1]

وأبرزت للأحباب وجها من النكـــــر

عليك لقد أجريت نهـــر مدامعـــي

وفيك استحق العقل سكرا بلا خمـر

نقضت[2] عهودا بالوداد تقـــــررت

وواليت أقواما توالت على ضـــــــر

فجاسوا بروجا للحروب تشيـــــدت

وداســوا ديــارا بالنواهي وبالأمـــــر

ونالوا من الأمـــوال يســـرا ميســـرا

وفازوا بها والقلب يصلى على الجمر

ومن لطفه أن السيـــوف أتـــت لنـــا

وسلت على الأشجار تقطع بالثمـر[3]

(1) كذا في الأصل، والواضح أن الشاعر يقصد «سماحة» بالميم.

(2) التاء في «نقضت» مشددة في الأصل. وهو خطأ.

(3) من وحشية المحتلين قطعهم الأشجار مثمرة وغير مثمرة. وقد أراد الشاعر بهذا البيت أن عناية الله قد وجهت سيوف العدو إلى الأشجار بدل قطع الرؤوس. ولكن السيد فانسان علق على البيت تعليقا خارجا عن قصد الشاعر في نظرنا، وهو قوله أن الشاعر قصد بالبيت تحية إنسانية المنتصرين الفرنسيين، لأنهم صبوا جام غضبهم على الشجر فقط! أنظر: (المجلة الآسيوية) عدد، 8، 1839، ص: 506.

فضجـــت أُناس والعقـــول تولهـــت

وباتوا على حزن الفـراق بلا فكـــــر

فباعوا نفايـــس المتـــاع ببخسـهـــا

وهاموا حيارى في الفيافي وفي البحر

فآه على جهـــــدي وما به[1] منعـــــة

وآه على دار يســـود بهـــا غيـــــري

أموت وما تدري البواكـــي بقصتـــي

وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر

فيا عين جودي بالدمـــوع سماحـــة

ويا حزن شيد في الفؤاد ولا تســـــر

ويا صـــاح تدبيـــر الأمـــور لخالقي

فصبرا عسى عســر يبـدل باليســـر

(1) كذا في الأصل، لكننا نعتقد أن هناك خطأ في النقل لأن المعنى يكون أفضل مع «بي» بدل «به» هكذا: «فآه على جهدي وما بي منعة».

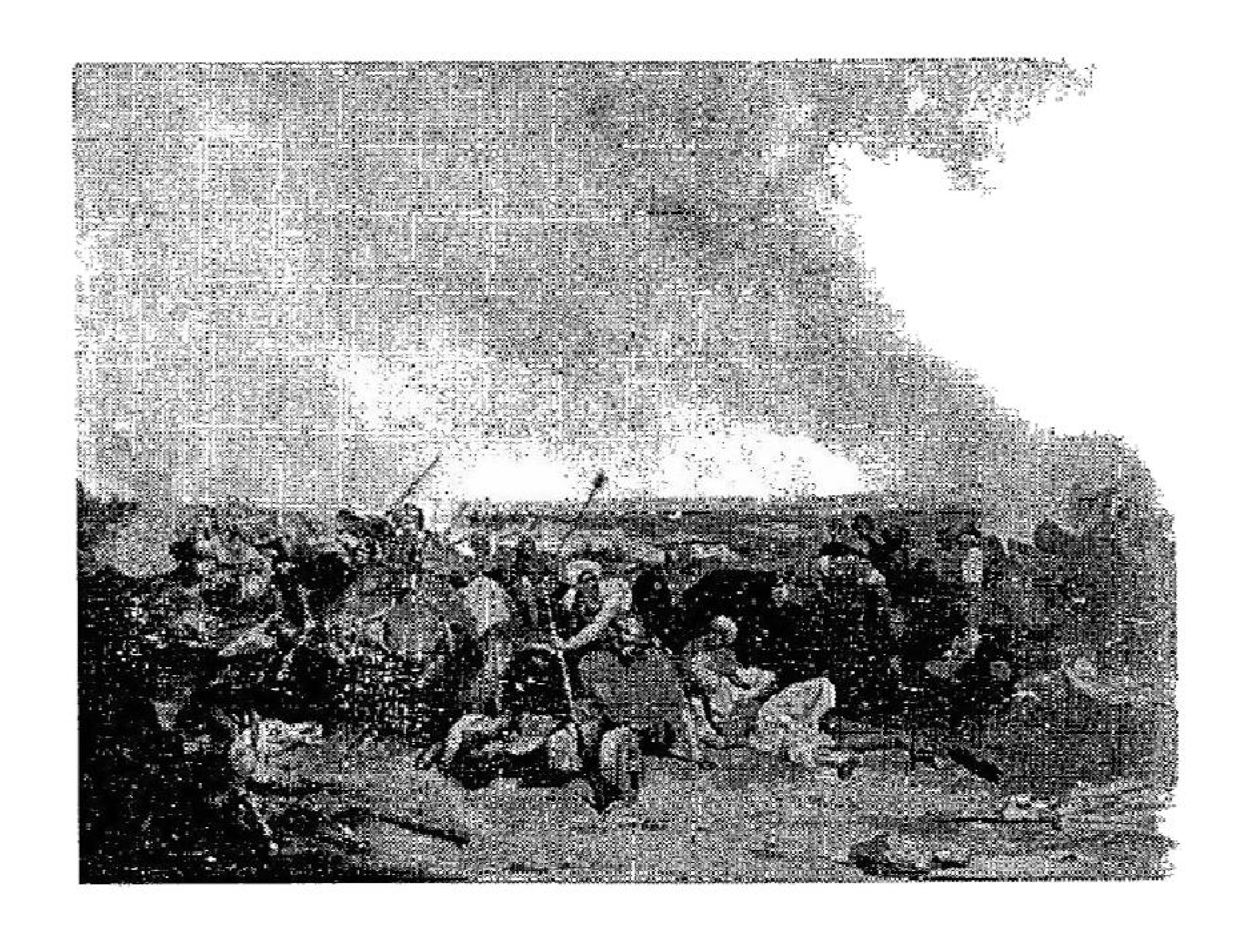
ملحق بالصور



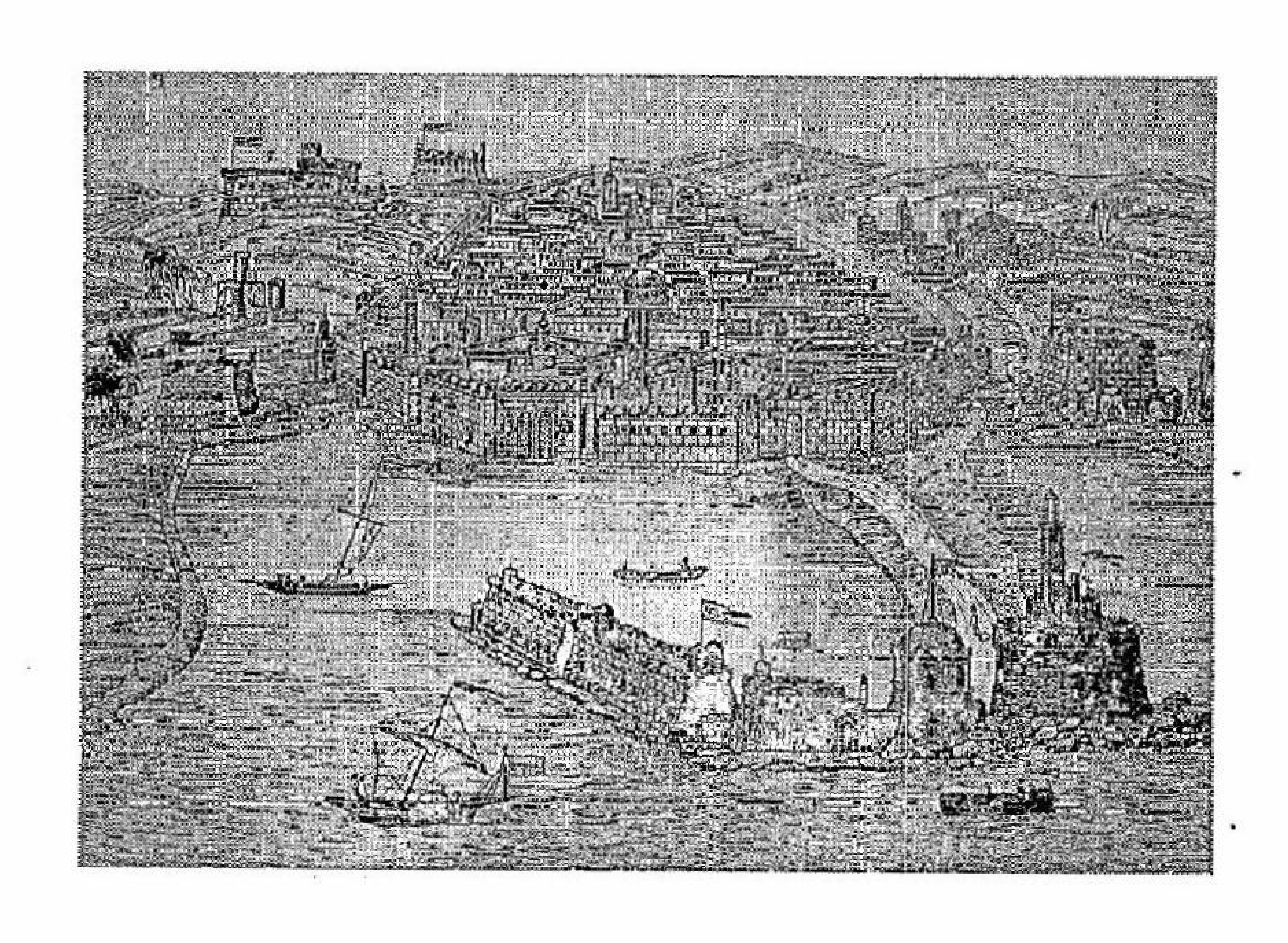
صورة للداي حسين باشا



حادثة المروحة التي اتخذتها فرنسا ذريعة لاحتلال الجزائر



معركة سيدي فرج 14 جوان 1830



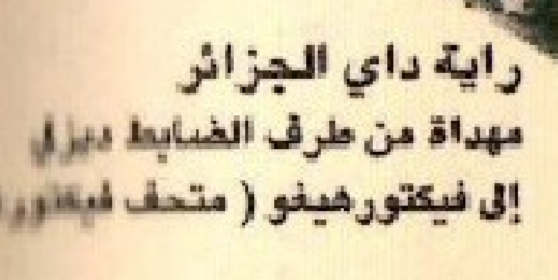
مرسى مدينة الجزائر قبل الاحتلال

محتوى الكتاب

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من النصوص، لكل نص سمة خاصة من حيث كاتبه، ولغة كتابته، والحالة النفسية التي كتب فيها.

فالنص الأول: هو تقرير رسمي كتبه القنصل الأمريكي في الجزائر في أثناء الاحتلال، وقد كتبه بعد عدة أيام من احتلال مدينة الجزائر، وقد أرسله إلى سلطات بلاده، يعلمها فيه بما جرى، وبالرغم من أن القنصل لا يخفي مشاعره وتعاطفه مع الفرنسيين، فقد لاحظ " أن القوات الفرنسية قد أجرمت بارتكاب العديد من الفضائح التي قد تلائم المتوحشين ولكن البرابرة - كما يقول - الذين قاوموا الفرنسيين لم يصدر منهم أبدا مثل ما صدر من هؤلاء".



راية داي الجزائر
مهداة من طرف الضابط ديزلي
إلى فيكتورهيغو (متحف فيكتور هيغو

والنص الثاني: هو لشخص يسمى أحمد أفندي، الذي يبدو أنه كان موظفا تابعا لمفتي الجزائر وقد هاجر بعد سقوط الجزائر إلى الأناضول.

والنص الثالث : هو لأحد الألمان يسمى سيمون بفايفر كان عند احتلال الجزائر أسيرا ولم يكتم هو الآخر مشاعره وتحيّزه للفرنسيين وغبطته باحتلالهم مدينة الجزائر.

والنص الرابع : عبارة عن قصيدة باللهجة العامية لشخص يسمى " الشيخ عبد القادر " الذي لا نملك عنه معلومات وقد عثر على هذه القصيدة المستشرق الفرنسي جوزيف دي بارمي.

والنص الخامس والأخير هو عبارة عن قصيدة باللغة الفصحى وهي لعلم من أعلام الجزائر آنذاك وهو الشيخ محمد بن الشاهد الذي تولى منصب الإفتاء في الجزائر، وقد نشر القصيدة وعرّف بصاحبها الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه تجارب في الأدب والرحلة.



